مواسم الشروق

قصص

أحمد الشيخ

المؤلف : أحمد الشيخ
الكتاب : مواسم الشروق
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٣ م
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٩٦٦٠

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

أ. نجيب محفوظ	رئيس شرف النادى
أ. يوسف الشارونى	رئيس مجلس إدارة النادى
أ. نبيل عبد الحميد	نائب رئيس مجلس الإدارة
أ. عبد العال الحمامصى	سكرتير عام النادى
د. يسرى العزب	أمين صندوق النادى
أ. صفوت عبد المجيد	مقرر لجنة النشر

إهـداء

لمصر المستقبل..
والناس
ولروح جمال حمدان
عاشق مصر وكاتب شخصية مصر
ولابنتى الجميل «سها»
حلمت بها وكتبتها قبل ميلادها بربع قرن
فجاءت بين الولدين
هشام وحازم
فإليهم كل الأمنيات بمستقبل مأمون
مع جيل مصر المستقبل

أحمد الشيخ

تنويه

هذه مجموعة قصص من عالم روائى طموح يأمل كاتبها فى أكمالها بكتابة الجزء الخامس لتكون أول خماسية عن القرية المصرية وناسها، ولولا اللوائح الخاصة بمنح التفرغ التى انكتب خلالها أربع روايات هى «الناس فى كفر عسكر - حكاية شوق - حكايات المدندش - سيرة العمدة الشلبى» والتى صيغت فى سالف الزمان والتى تشهر بنودها لفرملة أى مشروع طموح مالم يكن طالب المنحة خفيف الظلل والوزن ومبلوعا ليتخطى الحواجز والموانع بواسطة متنفذ له صلاحيات، ولولا ثقل الوزن وآفة الصلع الموروث ومواجع القلب التى ترسم على الملامح علامات مرارة لأن العين تسمع والقلب يستقرئ تفاصيل واقعنا المعاش بكل مخازيه ومنجزاته، ولأن كثرة من كبار النقاد تناولوا المنشور بقدر ملحوظ من التقدير مثل تلاميذهم والكثرة من الأدباء اضافة الى الناس البسطاء الذين جاهدنا لنقل بعض ماكان وما صار اليه الحال فى حياتهم بقدر من المصداقية

وكأنما وظفني كفر عسكر شاهدا لحساب ناسه وهو كفر بنفسجي مائل للسواد فى الظلمة رغم كونه نابتا فوق طمى النيل المائل للسمرة.

كان الحياء قد أصابنى فأوصيت مالك اللوائح ومفسرها بأن يتولى هو كتابة الجزء الخامس، لكنه خذلنى بالامتناع عن تنفيذ الوصية، التمست له الأعذار لأنه فى موضوع الكتابة الابداعية لا يملك أى عبقرى حتى لو توطأ مع نفسه أن يكمل بناية جزء من عمل فني اتكتبت منه أربع أجزاء ، لعلنى تواطأت بينى وبين نفسى على عدم المطالبة بحقى فى استكمال النص وركبت دماغى، لكن ناقدا مرموقا ينتمى الى نفس الناحية التى أنتمى اليها عاتبنى وحرضنى على تجاوز ضعف الهمة والتكاسل الناتج عن مقدمات الشيخوخة غير المبكرة وأوصانى بأن اعاود المحاولة لاكمال الخماسية قبل أن تتحول الى رباعية مبتورة بالغصب وعلى غير الارادة، وعندما تقدمت بطلب استثنائى من نصوص اللوائح لم يتردد الفنان وزير الثقافة فى الموافقة على طلبى بعيدا عن عنفوان اللوائح وجبروتها، حملنى فى واقع الأمر مسئولية كتابة النص الأخير من خماسية كفر عسكر وأمل أن أكون عند حسن ظنه على النحو اللائق

والقصص فى هذه المجموعة أجزاء من أربع روايات نشرنا منها ثلاث ومازالت الرابعة حبيسة أدراج المسئول عن روايات الهلال رغم سابق الموافقة ومراجعتى لها وتصحيحها وتسجيل أمر الطبع منذ ثلاث سنوات تقريبا وقد بلغه على لسان متنفذ كبير أننى نشرتها أو سوف أنشرها أو تعاقدت على نشرها قبل أن يتكرم بنشرها فى سلسلته منذ مايزيد عن عام ونصف، وقانا الله ووقاكم من كل المعوقات أو المصادفات المدبرة

هل كنت أطمح منذ بدايات السبعينيات من القرن المنصرم أن أفض الاشتباك أو أزيل الحواجز بين القصة القصيرة والرواية على النحو الذى بدأت به مشروعى ؟ لابد أن نسيجا فنيا مشتركا ومنفصلا فى ذات الوقت كان يناوشنى ليكون جزء الرواية قصة قصيرة بكل اشتراطاتها الطموحة، تجديدا لم نبغبغ به مثلما فعل أدعياء كثار تاركين الحكم النهائى للناقد والمبدع والمتلقى فى ذات الوقت، المهم أن يسعى النص الى مصداقية تنشغل بحياة الناس وتتواصل معهم، وبماذا يحلم أى كاتب صادق مع نفسه وعارف بمسؤليته أكثر من تواصل حميم مع من يقرأ ؟ هى محاولة زاخرة بحسن النوايا، فإذا أفلحت زادت سعادتنا، واذا لا قدر الله لم توفق على النحو المأمول فلنا

شرف المحاولة ولكم منا كل التقدير والوعد بالمزيد من بذل الجهد - ان عشنا - فى مستقبل الأيام .

تجديد الجرح القديم

- ما حدش بيموت ناقص عمر يا سعاد

قلتها راغبة فى تخفيف حزنها على سيد فأطلت ناحيتى بغضب، قامت من قعدتها، علها خافت أن تلومنى على قدرتى على الاحتمال، لو دخلت هى قلبى لعرفت إلى أى حد اكتويت بناره، هو قطعة منى، حملته فى بطنى وشفت فيه المرار قبل مولده وبعده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرمونى منه قبل الأوان بألف أوان، سلمت أمرى لله ولهم، وظل طيفه طوال العمر يشاغلنى من بعيد، كنت أتذكره فى كل وجبة وأسأل نفسى إن كان شبعانا أو جائعا، كنت أراه فى وجوه من رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتى عليه، وأحرم لسانى من مجرد ذكر أسمه، أقول لنفسى ما قيمة الحديث عنه وقد كنت فى كل مرة أرى فى عيونهم نظرات الاستنكار والملامة، فى أول الأمر عندما كنت أفكر فيه أو اشتاق إليه أبوح بالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتى مع حسن، أشعر بالغيظ لأنه من الصعب أن أنساه أو أن أصدق ما يقال أنه لابد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عودت نفسى أن

أكتم أشواقى لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جرحى الغويط مدفونا فى أحشائى، وخفت أن أظهر لهفتى عليه أمامهم، لكنه كان ولدى، لحمى ودمى وجرح عمرى.

– مش مصدقه نفسى .

قالتها سعاد وهى تقترب، فى عينيها سؤال تخجل أن تواجهنى به، استبعدت أن تكون عاجزة عن فهم مشاعرى وهى بنت المدارس التى تعلمت والتى كنت فى الأيام الأخيرة أبثها أسرارى وأشركها فى همى، همى القديم الذى تجدد وتجسد فى ميت أكدوا أنه لا يخصنا فى شىء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزينى فيه بأكثر من الكلام العابر، كان العزاء هناك فى الناحية الأخرى، فى دار عبد القادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفر كما يقولون ذاهلا عن نفسه، يتمتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجردنى من حقى فى مشاركته الصراخ أو الأعلان عن فجيعتى فيه، كانت النظرات تنصب على وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتنى، تكوينى بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ رجل جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدا عنها وما نساها أو نسيته، على الوجه المغدور بسمة، والملامح السمراء حازمة تتطلع بأمل فى مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقه، هل كنت قد قرأت فى

آخر زيارة له حزنه على شبابه الضائع قبل الأوان بلا ثمن؟ وهل حدثتك يا سيد عن خوفي عليك من ناس الكفر مرة؟ وهل ركبني كابوس رأيتك فيه تسقط بضربة غادرة؟ ليتني أكون قد بحت لك بهواجسي بضعفي وعجزي ووجعي الذي يتخفى ويتوارى، يداريني خلف عبارات عن النصيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه واسمع في المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة يلصقونها بي :

– عاقلة

ليتني كنت أملك الحق في جنون مثل جنونه، فها هو يأخذه مني ميتا كما أخذه في السابق حيا يتلوى من قسوة الانتزاع وأنت حر في أن تعلن للكل أنه ابنك وحدك، ساكن المدافن الحي باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزني أو دخلت معه السباق الخاسر، ومن يصدقني إن فعلت ووصفت له قسوة النار التي تسكنني ولا أمل في انطفائها بآلاف الصرخات، حتى لو خسرت فيها أولّ خلفتي وأول فرحتي، أول من حملته في بطني وأول من أحياني بعد موات لحظة أن سمعت صرخة مولده في القاعة، ولن أحكي يا سعاد إن لم تسمعيني أنت وتغفري لي ذنبي إن كان طول احتمال فراقه ذنبا استحق عليه الغفران وأن لم تفهميني أنت وأنت امتدادي

فمن يفهمني ويلتمس لي الأعذار فيعزيني فيه من الغرباء ؟

المنتدى يناير ١٩٨٩

الوريث والميراث

(١)

جلس فى صمت، سألته عن الأحوال، قال متحرجا

- عمى برهوم يطلبك

عجبت للأمر، بدت على ملامحى دهشة، أضاف :

- متأخر

اهتز قلبى، هل رقد برهوم ؟ .. وقد تأخر وطلبنى، كل هذا بسبب الرجل، لم يسمع كلامى، تسبب فى ضياع وموت عبد الحميد، والآن برهوم، كان قلبه صخرا صلبا لا يلين، أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحى : ربنا يستر، أخذنا عربة مخصوص من المحلة حتى الكفر، دخلت عليه المندرة .. أصفر ومعلول وعاجز عن الحركة .. كأنه عجوز .. صوته عاجز وعيناه زائغتان فى دنيا غير الدنيا، لما شافنى حاول أن يعتدل فلم يفلح، قلت له : ارتاح .. قعدت الى جانبه على طرف السرير قال : الحمد لله .. كنت أريد أن أراك قبل أن أموت، أبى كان منتصبا قبالة

السرير، مطرقا برأسه، لم يهتم بوصولى، لم يلتفت الى .. مد برهوم يده الى يد أبى، أخذها وقربها ناحيتى، قال لأبى : سلم على حسن .. خلص أبى يده برفق وقال بجفاء : برهوم طلبك يا حسن، نظرت الى برهوم. ساعتها نسيت كل شىء حتى خصامى الطويل مع أبى وانقطاعى عنه لعشر سنوات، نسيت كل شىء إلا أن أرى برهوم يقف أمامى، قال بصوت جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعا واهنا :

– لو مت يا أبى فالارض لحسن، ولو عشت نقتسمها بالتساوى. «لحظة الموت لا يفكر الانسان فى الامتلاك»، قلت أريحه من الكلام : كن فى حالك، أسكتنى باشارة من يده وتابع كلامه .

– كوم الطماع ناقص، طمعت أمى فى حقك وحق عبد الحميد، كتبت لى الأرض فعجل بعمرى

تقطع قلبى ولم أعد أحتمل المزيد، حاولت أن أدارى دموعى لكنها كانت تسيل، كلما نظرت اليه والى أبى المهموم فى صمت ازداد حزنا، بدأ الصوت يخفت أكثر والعينان تغيبان. وكلما أفاق من غفوته يمسكنى من يدى ويضغط عليها ثم يغيب من جديد.. كأنه يتمسك بشىء فى يدى أو يودع بها أمانة عزيزة

يحرص على ايداعها معى سرا، كان يقول كلاما بلا رابط، زفر أبى وخرج صوته جريحا واهنا من بعد طول صمت :

– لا فائدة.

كان أبى على حق، فبعد لحظات كان الوجه قد شحب تماما والشفتان تستحيلان الى زرقة قاتمة، والفم يحاول البوح بشىء دون أن يستطيع، نفذت الروح وهمد البدن تماما ودموع أبى تنسال على وجهه الصارم ربما لأول مرة فى حياته، مطرقا كما كان، والأصوات النسائية تشق الصمت وتنفذ ليس الى الآذان وإنما الى صميم القلب .. هكذا انتهى برهوم بعد أن أودع بكفى سرا لم أستطع فهم معناه .. وكانت الدموع التى تنسال على وجه أبى تعلن أن فرعنا خاب وأنه أحس ربما للمرة الأولى فى عمره أنه خاب، كنت أنظر اليه خلسة فتزوغ عيناه هربا .. اليوم تبكى وتخجل فى مواجهة الموت وطوال عمرك لم تبك من أجل الحياة ..

كانوا يتهامسون فى المندرة بينما المقرئ يتلو آى الذكر الحكيم، وكانت أصواتهم تنفذ الى شماته ربما، وربما فى محاولة لاظهار الود.

– ربك خلاف الظنون.

– مبروكة طردت الولدين وكتبت كل الأرض لبرهوم

– رجل غشيم. شتت أولاده بلا لزوم .. من أجل امرأة

– من يزرع الخير يحصد الخير ومن يزرع الشر يحصده.

– أراهنك لو كان يعرف الطريق الى قبر عبد الحميد

– تزوجته وظلت تزن على دماغه وهو يطاوع

– كان يحسب أن الدنيا ملك يمينه يعطى من يشاء ويمنع عمن يشاء.

كنت أشعر بالأسى الممزوج بالغل، رغم البلوى لم يوجه الى الرجل كلمة ولا حتى نظرة .. قلت لنفسى ربما يحسبنى طامعا فى شىء قلت له : لا أطمع فى شىء من دارك. كانت مبروكة فى باحة الدار مع الحريم .. دخلت المندرة .. كان على رأسها طين جف وتيبس وعلى وجهها صبغة زرقاء، أمسكتنى من طوق جلبابى وراحت تصرخ فى جنون حقيقى، عيناها تنضح غلا وحشيا ممزوجا بهم لا يطاق كانت مرعبة ومثيرة للأشفاق .. راحت تهزنى وتصرخ :

– هل جئت لترث فى الغالى ؟.. هل جئت لترث ؟

كان أبى صامتا .. جاء الغرباء وخلصونى من قبضتها .. كانت القطيعة بينه وبينى لا تطاق .. صرخت فى وجهه :

- لن أدخل دارك بعد اليوم.

خرجت من الكفر، تماما مثل المرة الأولى منذ عشر سنوات، يومها كان عبد الحميد معى .. شابين هاربين من أب غشيم يصدق كل ما تقول به زوج أب لا يحتملها أنسان .. حتى موت وحيدها لم يتمكن من اخراجها من خضم الكراهية التى زرعتها فى كل القلوب، وضربت بها نبتة الحب قبل أن تنمو فى أركان الدار.

(٢)

ولما جاءنى المرسال سافرت، «هدك الموت يا أبى ؟ فعرف المرض طريقه اليك؟ آت اليك برغم كل شىء فالقلب ينسى ولا يحمل غير الحنو والنسيان» لما دخلت الدار وجدته جالسا فى صحنها على «دكة النورج» قلت وأنا أتجه ناحيته :

بعد الشر عنك، ظل ثابت فى قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويط، قلت لنفسى .. مازال مهموما من أجل برهوم .. مددت إليه يدى فظل جامدا فى قعدته، لم يمد يده، جلست بجواره فى صمت «ربما مازال غاضبا منى لأننى تركت الكفر غصبا وفرارا وسببت له شعورا بالوحدة» جاءت مبروكة وجلست فى صمت .. قالت : شفت ؟ نظرت اليها بضيق، ثم نظرت اليه وهو على حاله

.. هل قطعوا لسانه فما عاد بقادر على النطق ؟.. قال هو ليقطع الصمت الذى طال وظل يحوم حول الرأس ليجعلها تتابعه غصبا وتدور هى الأخرى :

– هيه .. كله بأمره ..

بعدها بدأ يحرك عصاه فى صعود وهبوط متتابعين فتدق بطرفها الأرض كأنما يأمرنا بالانصات بينما نحن صامتون .. قال :

– ايه يا ولد .. ماذا ترى ؟

كان فى صوته شرخا لا يود أن يبين، يجاهد أن يخفيه، قلت متوجسا من نبرته :

– أراك بخير .. و ..

قاطعنى بصوت مهزوم مستسلم منكرا قولى :

– لكننى لا أراك ..

لحظتها أدركت كل شىء .. استعدت الموقف من أوله وأنا أطل الى عينيه العسليتين الصافيتين واللامعتين كعينى قط برى أو حتى ذئب .. عجبت لأننى لم أكتشف الأمر قبلا، ارتعبت وأنا أدقق النظر فى الملامح المتهدلة والمتراخية كأنها لا تخصه.. هذه الملامح بالفعل لا تخصه، كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح

وتشدانها الى الوضع المعتاد، تبعثان فيها دفء الحياة، فلما عجزت وأصبحتا بلا قيمة أصبحت التقاطيع بالتالى بلا حارس، تراخت وتهدلت، أصبحت مجرد كتل لحم عجوز متهدل بلا معنى، كانت الملامح بالفعل ميتة توشك أن تعلن عن انتفاء جدواها. وكانت خطوط الزمن تكذب. وكلما حاولت التقاطيع أن تقول شيئا تعجز، ولا شيء غير الاستكانة والأسى يطلان من خلال البريق الأعمى الضرير الذى لا يميز.

«ميزت فى ماضيك كثيرا حتى أتعبك التمييز، نظرت بالعينين فخوفت الكل حتى نفذ من العينين كل اشعاع والآن تجلس .. لا تملك حتى أن تدخل بيت الأدب بلا مساعدة .. والذى انقضى راح وولى، وكنت فى يوم من الأيام أصلب عود فى شجرة أولاد عوف.. لكن هل أخطأت بالفعل الى الحد الذى جعلك تدمر الفرع كله ؟ هل كانت حياتك بأسرها غلطة كبيرة متتابعة الحلقات يستحيل أن تخرج من اسارها، وهل شدك القيد غصبا أو طوعا فى كل محاولة للخروج لتسقط من جديد فى دوامة التعسف الغشيم والتجبر ؟ ومعاركك التى حصلت بفعلها على الاسم المهيب الرنان والتى مازالوا يتحدثون عنها وكأنها حواديت ما حصلت ولا كانت، وماذا يقال عنك اليوم فى كفر عسكر ؟ ربما

فرح البعض لأن البلوى حطت ولم يبق منك شيء، ربما تحسر البعض وأنت تتهاوى حيالهم من مكانك القديم ومكانتك وتقعد فى صحن دارك لا ترى عدوا ولا حبيبا».

لم يكن لدى ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به، كان هو قد عودنى على عدم البوح بشيء مما يدور فى دماغى، وكانت قعدته المستكينة المستسلمة قد قطعت لسانى، خيم السكون والعجز حولنا .. حتى مبروكة لم تنطق بشيء .. قال هو .. وهو يهتز أماماً وخلفا مثل مقرئ الرواتب الكفيف الذى يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال .. بصوت العاجز اليائس :

– العمر عدى وفات .. ما عاد غيرك .. برهوم راح .. عبد الحميد راح .. وحتى النظر راح .. وراحت أيام القدرة .. لم يبق عزم ولا قدرة .. لو ترجع يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود، أشوف بعينيك بقية أيامى.

هذا كلام جديد .. وهذا لسان غريب.. وذلك الجالس بجوارى رجل آخر .. أب لم أستشعر ناحيته إلا الخوف، الخوف المرعوب المتواصل .. الخوف الذى يتسلل الى كل الخلايا ويصبغها بالرجفة الجبانة فى مواجهته .. نظرت الى مبروكة، كانت ضئيلة وتافهة وعاجزة عن التعليق على شيء.. كدت أشعر ناحيته

بالاشفاق .. وكأنما فى تلك اللحظة قرأ ما كان يدور فى داخلى .. برقت عيناه فحسبته يدخل دماغى .. يتسلل اليه ويقرأ ما يدور فيه .. كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يرانى .. وامتزج الاشفاق عليه بالرعب منه، من نظرة اللوم المطلة من العينين وكل التقاطيع التى عادت تحيا بعد الموت، كنت أشعر اننى بجوار أبى .. كأنما ولد أحساسى به فى تلك اللحظة، لم أعد أحتمل .. جعلت أنهنه .. من أجل الأب الذى غاب عنى طوال العمر كنت أبكى، قال : الظفر لا يطلع من اللحم .. الدم لا يبقى ماء .. وابتسم .. كأنما استعاد نفسه، كأنما اطمأن الى أنه استعادنى تماما .. كانت تقاطيع الوجه تنتعش وتفيق، تنفض عن نفسها البلادة وتحس وتقول .. والنبرات تقاوم الارتعاشات، وراح يحكى .. منبسط الملامح والنبرات .. من حيرتى كنت أقول لنفسى .. ليس أعمى .. فها هما العينان تبرقان ببريق الوعى والاحساس والحياة .. وكلما قال شيئا يزداد فى قلبى الصخب .. أود أو أحتويه .. أجعله يحسنى ويرانى .. وعندما أتوارى عنه بدمعة يحسها .. يقول : الرجال لا تبكى يا ولد .. أنفى بالدموع والاجهاش أننى أبكى .. يقول : أخذنا زماننا فلن نأخذ زمانكم .. «شئ عجيب .. عبد القادر عوف يعلن أن للزمان دوره وأن

لكل انسان فى الحياة دورا محسوبا يعيشه ولا يتخطاه .. ليس أبى .. من كنت أعرفه رجل آخر .. أخرجنا بليل من داره .. ربانا على الخوف منه والرهبة ..».

قلت : كنت زينة الرجال .. ولكن ..

همهم : هيه .. كله بأمره

هاهو يعاود التسليم بصورة لا تطاق ..

«يوم تعاركنا مع أولاد العزبة ضربوا عبد الحميد .. كان رجال العزبة قد عبروا الترعة وراحوا يضربون بالعصى .. فررنا .. لكنهم طالوا عبد الحميد .. ظهر أبى وكأنه مارد من عالم خرافى .. جسور واثق مطمئن الى نفسه لحد التهور .. اخترق صفوف الرجال بخبطات شمروخه .. جاء أولاد عوف الكبار نظر هو الى الرجل وهوى بشمروخه على الرأس، كان الرجل فحلا بشوارب مرفوعة .. سقط ولم يقم أبدا .. فر الرجال من حسم الضربات .. وكان أولاد عوف يطاردونهم بالعصى واللعنات .. كانوا يرمحون فى كل الاتجاهات ويخوضون فى ماء الترعة البنى ويجعرون .. والذى مات يا رجل راح دمه هدرا .. وعبد الحميد لما أفاق قلت له .. أنت هزيل وليس لك الحق فى أن تحمل اسمى مادمت تعجز عن الدفاع عن نفسك .. وأطرق عبد الحميد

يومها خجلا لأنه أحس بالخطأ الذى ارتكبه .. أولاد عبد القادر عوف لا يعرفون غير الفوز فى كل المعارك التى يدخلونها .. هكذا قال .. وربما كان اختلافنا معه بسبب ضعف ورثناه لم يرض عنه أبدا ..»

كان يحكى عن تاريخه القديم .. مستعيدا ذلك الزمان الذى ولى .. هاربا من زماننا العويل الى زمن العزوة والقدرة

– تذكر يوم عاركنا برابرة السلطة ؟ وأخذنا عطيه الذى أخذوه ضمن من أخذوهم سخره .. أولاد الكلب ظنوا أن أولاد عوف مثل الآخرين ..

كان يبتسم .. عجبت .. سوف تظل هكذا تحكى ولا تفعل، سوف تظل مقعدا على دكة النورج .. تتسمع مالا يرضيك وتصمت .. وسوف تساعدك العصا فى حركتك فى جنبات الدار .. نفس العصا التى طالت رؤوس الغرباء وطالت حتى أولادك وخلفت لدى كل منا جروحا لم تندمل وآثار عاهات، ترى هل من الممكن أن أحتمل رؤيتك هكذا .. ؟

– عندما تعود خذنى الى ارضنا فى الحوض الكبير .. يصعب على أن أطلب هذا رغم اشتياقى لريح هذا الحقل ..

دمدمت بكلام غير مفهوم .. سوف أقوم أذن بدور الدليل

لرجل كفيف عاجز .. وسوف أمشى فى دروب الكفر أسحبك وأتسمع لمصمصات الشفاة ونكات الشماته ونظرات الاستياء .. سوف أعود للأرض لكنك سوف تفسد كل شيء بهذا الكيان الجديد»

قال : ايه يا ولد .. متى تعود ؟ هات زوجتك وأطفالك واملأوا الدار ..

قلت : طبعا .. فى الصباح اذهب وبعد أيام أعود ..

قال : طال اغترابك يا ولد ..

قلت لنفسى وأنا أخطو خارجا من عتبة الدار

«لن أعود يا رجل» كان صدى كلماته التى ترجونى ألا أغيب يترجرج فى طبلتى الأذنين ويرف حولى محاولا اغرائى بالعودة لكننى كنت أفر من تلك النبرات الضعيفة الواهية، أكره استعادتها وأرغب فى سماع صوته القديم الآمر الصلب .. كنت أتخوف من معاشرة هذا الرجل بقية أيامه .. وأحلم بعودة الأب القديم القادر على الفعل الذى يرى ويسمع ويحس، أما هذا الرجل فهو مجرد بقايا رجل .. نفاية رجل لا أنتمى اليه ولا أعرفه برغم كل الاشفاق والحنو عليه والرغبة فى مساعدته كضرير يحتاج الى عكاز بشرى يتحسس له الطريق ويقوده الى حيث يرغب أن تراه الناس.

جريدة الاهرام ١٩٧٨/١/٢٨

خصومات مؤجله

وكان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبى - يجمع أولاده وأولاد أولاده فى صحن داره البراح التى بناها على السكة الزراعية خارج زمام المبانى مكان زريبة جعفر البياع تلك التى اشتراها جدنا منه مع الفدان، يجمعهم بليل فى الامسيات المقمرة الساكتة ويحدثهم عن جدنا الكبير الملك الشلبى :

«كان جدكم الملك الشلبى فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالى سلامه بألفين سنة واكتر، حكم الدنيا المسكونة فى زمانة متين سنة وخمسة، اتجوز كتير وخلف عيال كثير، وخلفته أكثرها كان صبيان، كانت الجارية من عبيده اللى تخلف ولد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير عليها ملك، واللى كانت تخلف بنت تفضل معاه فى الحريم لحد ما يجلها يوم وتولد ولد، حريم كثير كانت على ذمته وما خلفوش، جوزهم للعبيد، عبيده كانت كتير يسدوا عين الشمس، لكن العبيد مالهاش أمان، زيهم زى الجوارى اللى بلا خلفه، ويوم ما مات

الملك الشلبى هاج العبيد والجوارى حريم العبيد، حاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانه ونشروا الفساد فى الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك الاسياد بلاد، وطلعوا بالكدب ع الملك الشلبى كلام مالوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولى نعمتهم عبد مجلوب زيهم ومالوش وطن ولا أصل، وقالوا عنه راعى غنم والزمان عطاه، وقالوا عليه قاطع طريق وحرامى، وقالوا وقالوا، تاهت الحكايات، وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشلبى والعبيد، كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد مماليك من نسل الملوك وباعوهم فى سوق العبيد، خلق منهم كتير هربت فى بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبى واسمه، وفين ما تروح فى اركان الدنيا تلاقى فرع باقى من سلسال الملك الشلبى، حتى لو غيروا أساميهم خوف من ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كده، وعيونهم تشبه عينين فطوم، مكان ما تروح ح تلاقيهم، تعرفهم ويعرفوك، بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن».

* * *

كنت فى التاسعة أو العاشرة، يرانى اقترب منه فيقوم من

فوق كرسيه المرتفع ويحملني بين قبضتيه الى صدره، يحتضنني بحنو ويربت على ظهري، يبتسم في ود ومحبة وربما يجلسني فوق ركبتيه أو يعيدني إلى أبي بعد أن يدس في يدي قطعة من قمع السكر مكسورة ما لم يكن في جيبه تلك القوالب المستطيلة ناعمة الملمس، كنت في كل مرة احتفظ بتلك القوالب أو القطعة المكسورة في يدي حتى تنتهي السهرة ويكف هو عن الكلام، كان أبي ينتبه لذلك ونحن في مشوار عودتنا فيهمس لي أولا طالبا مني أكل قطعة السكر، لكنني كنت أقطع حوافها بأطراف اسناني قطعة صغيرة في إثر قطعة، استطعم حلاوتها على مهل على عكس ارادة ابي الذي يكون راغبا في الخلاص منها في أسرع وقت، كان يزغدني برفق ولكن بضيق ويتعجلني :

– يابت كليها بقى، السكر ماهو مرمي في البيت وف الدكان، انتي عاملة زي المحرومين كده ليه ؟

كنت اطاوعه أحيانا وأطحن قطعة السكر بين أسناني طحنا، وعندما انتهي من «القرقشة» اتسمع «برطماته» على عادته في كل مرة وهو يتهم جدنا هارون بالشطارة في الكلام الفارغ الذي لا ينفع ولا يشفع، كنت اكره في أبي تلك الجسارة والتطاول على الرجل الكبير الطيب ولا أعرف كيف ادافع عنه ولو بكلمة، وكنت

أود لو اسـأله مرة كيف استطاع أن يكره ذلك الوجه الصبوح الباسم ذا العينين الزرقاوين الودودتين كعينى عمتى فطوم.

– أصله مـا عـادش وراه حـاجـة يخـاف عليـهـا، أنما احنا متعلقين من عرقوبنا يا شوق.

كان يتحدث عن رأسماله الذى يتوزع فى ذمة خلق الله وكيف أن التاجر الناصح لا يعادى خصومه علنا، وأن مسايرة العدو والحبيب هى الوسيلة الوحيدة لاستمرار حياتنا فى الكفر، كنت أسـمعـه وكلمـات الجد هارون مـازالت تطن فى آذانى ويتـردد صداها، لكن صوت أبى سرعان ماكان يعلو ويرتفع أكثر حتى يوشك أن يصير صراخا فى فراغ الحقول :

– مش ح يهمد غير لما يسقط فى وسطينا نفر ولا نفرين، ما صعبش عليه دم المنصور وبدران والنبوى، عايزنا ننطح دماغنا فى الحيط يا شوق.

لا أرد عليه على عادتى فيسرع خطوه المتمهل وأجرى فى أعقابه حتى يبللنى العرق.

* * *

رأيته راكبا الحمار بالمقلوب ووجهه ملطخ بالدقيق العلامة، وعلى الرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه أسفل

الذقن بخرقة بالية، كنت اردد مع الأولاد والبنات ما كان يحدى به حسنين المدندش والطبلة تجلجل مع صوته، يحدى ونرد عليه:

جعفر باع داره
يا عيب الشوم
ونقص مقداره
يا عيب الشوم
...
جعفر باع غيطه
يا عيب الشوم
واتسهدم حيطه
يا عيب الشوم
...
ولا عادشي يساوى
يا عيب الشوم
ديل بغل حصاوى
يا عيب الشوم

* * *

كنت اردد مع الأولاد والبنات عندما وجدته واقفا قبالتى، كأنه

مارد طلع فى عز الظهر، عيناه الزرقاوان لا تحملان ودا كما اعتدت، والوجه عابس، ولأول مرة فى حياتى خفت منه، ذابت من ذاكرتى حلاوة كل قطع السكر التى كان يمنحنى اياها، فكرت فى الفرار لكنه أمسك بمعصمى وجرجرنى بشدة دون أن ينطق بكلمة، ابتعدت رغما عنى عن الأولاد وزفة حسين المدندش وحزنت لحرمانى من الفرجة على جرسة جعفر البياع، لكن المسألة لم تكن مجرد حرمان من المشاركة فى تجريس جعفر، ذلك أن الجد هارون كان يجرجرنى بعنف حتى وصل بى الى بنايات «الواطية» ثم دفعنى لأدخل باب دارنا الموارب، كنت أبكى بلا صوت من أثر مسكته القوية لمعصمى، وكان أبى يجلس على طرف الدكة، يطل دون أن يعترض، سمعت الجد هارون يوبخ أبى ويسبه ولا يرد، يكتفى بالسماع والاطلال علينا وكأنه يوافق على ما كان يقوله الجد هارون ان «تجريس» جعفر البياع فضيحة لكل أولا شلبى لأن الرجل لم يسرق أو يقتل أو يخرج من دين محمد، كان يقسم انه لو كان فى صحته أو كان له أولاد رجال لأنزلوا جعفر من فوق الحمارة وتصدروا لأولاد عوف، وانه لو عاش فسوف يعيد جعفر البياع الى الكفر رغما عن ارادة العمدة وصنف العمدة :

– هما متفرعنين على خلق الله كده ليه ؟

كان أبى على حاله، لا يرد :

– واحد وباع داره، باع أرضه.. لهم فى كده ايه ؟ ح يسيروا الدنيا على هواهم ؟

أخذتنى امى من يدى وكأنها تهربنى من عقاب ربما يحل بى، غسلت لى وجهى وجبهتى وأنفى، كان ماء الزير البارد يرطب أطرافى، وعندما أمرتنى لأشرب منه جرعات رطبت المياه جوفى أيضا، أخذتنى هى الى القاعة وشرعت فى تسريح شعرى، وسمعت صوت هارون وهو خارج من باب الدار يحذر أبى ويهدده :

– لم بنتك يا عبد الستار، ان شفتها بترمح ورا حسنين المدندش ح يكون بحش أجلها ..

وبعد أن خرج وارتطم الباب فى اثره كنت التقط من بعيد صوت حسنين المدندش وهو يقترب داخلا درب المغربى :

أهى خيبه وحطت

ياعيب الشوم

ناس عاليه ووطيت

ياعيب الشوم

ناس واطيه وعليت

ياعيب الشوم

ناس خاليه وملكت

ياعيب الشوم

ناس مالكه وخليت

ياعيب الشوم

وفى الليل سمعت عطيات تحكى عن خروج جعفر البياع من الكفر مضروبا بعد أن ربطه العمدة على النخلة أمام دواره، وكيف تعب شيخ الخفر من كثرة ضربه بالكرباج السودانى، وأن العمدة بصق فى وجهه واقسم برأس أبيه أنه لو رآه فى الكفر يكون آخر يوم فى عمره، لكننى فى مشوار الذهاب الى دار الجد هارون عرفت أن الشر بعيد عنا على أى حال وأنه لو كان جعفر البياع ابن ناس وله عزوة فى الكفر لتصدر أهله لأولاد عوف، ذكرهم بأولاد البدرى الذى أمر العمدة بتجريسه فى العام الماضى وكيف تصدر له أولاد أخيه وأولاد بناته واتفقوا مع العمدة على ان يكتفى بخروجه فى صمت دون أن يحس بذلك أحد، وذكرهم ايضا بحسان عامر الذى باع أيضا ولم يضربه العمدة أو يأمر بتجريسه، والأمر كله عزوة وأهل تحمى النفر من

بطش أولاد عوف والعمدة الذى يحميهم ويحموه، وعقب البكرى قائلا للجد هارون :

يابا الحاج انت اشتريت وهديت وبنيت، ولاحدش جاب سيرتك، هو انت كنت ح تعمل لجعفر مغسل وضامن جنه ؟

لم يرحب الجد هارون بكلام البكرى وبدأ يحكى من جديد حكاياته المعادة عن جدنا الملك الشلبى، ولا أدرى لماذا كنت فى ذلك المساء حزينة وغاضبة من الجد هارون والملك الشلبى وكل ملوك الدنيا .

* * *

راحت العمودية من عبد القادرا فادعى لطوب الأرض أنه فاتها برضاه لابن عمه، خلع رأسه أياما وجلس على بوابة أولاد عوف، شمروخه فى قبضته ولسانه مثل «الفرقلة» يطيح فى كل اتجاه، لا يحكمه حاكم ولا يربطه رابط، ويوم مر عليه مرزوق شلبى عمل الواجب، نزل من فوق حماره تحسبا ورمى عليه السلام، لكن عبد القادر لم يرد عليه السلام وناداه، جرى أولاد شلبى وأحاطوا مرزوق خوفا عليه من طيش عبد القادر، ابتسم عبد القادر وقال لمرزوق وهو يتحسس كم جلبابه :

– الجلابيه دى عاجبانى يا مرزوق .. قماشها منين ؟

– م البندر يا عبد القادر .. خلق كتير لابسه زيها ..

– آه .. يبقى التفصيل .. مين اللى بيفصل لك يا مرزوق ؟

– الغباشى.

– ايوه .. ايوه .. هى دى تفصيلة الغباشى .. بس حلوه عليك يا وله.

– انت عاوز نتعارك يا عبد القادر ..

– ابدا .. إحنا كبرنا ع العركة يا مرزوق .. الشمروخ هناك أهه، مركون على جدار أبوك السعيد عوف.. يبقى عركة ايه بقى؟ اسمع .. أنا عاوز العب وياك لعبه .. تلاعبنى قصاد الخلق دى لعبه مافيهاش ضرب ولا خبط ؟

– اللى تشوفه

كان مرزوق قد استسلم لاحتمال ضياع ساعة أو ساعتين على البوابة، ربما تسلل اليه خوف من عراك لم يعمل حسابه، وربما لمح عبد القادر فى عينيه رغبته فى عدم مواجهته .

– بيقولوا انك مولود معايا يوم بيوم يا مرزوق، اسمع بص لايدى كده، ح أزقك بيها، أن رجعت لورا تبقى خسرت، وان فضلت مطرحك تكسب، تبقى انت الوحيد فى الكفرده اللى تفوت قصادى راكب حمارك ماتنزلش .. بص .. هه ..

قالها وعينا مرزوق تتابعان حركة كف عبد القادر المفرودة الأصابع، وعندما طالت أطراف أصابعه فم معدته ثبت فى مكانه، وربما عبر لحظة إنغرست أطراف الأصابع فى لحم البطن، عادت الكف المفرودة الى مكانها وهمس عبد القادر.

– عفارم عليك يا وله.. لأ راجل .. تبقى انت كسبت الرهان يا مرزوق، تعدى رايح جاى راكب حمارك ما تنزلش من عليه من النهارده ...

قال عبارته الأخيرة وانزاح عن طريق مرزوق ليعبر المكان الضيق بين عبد القادر والجدار، فك التهامى حماره وسار فى اثر مرزوق ومن بعده بقية أولاد شلبى، حسبوا أن عبد القادر أصيب بطوفة مفاجئة، كان يبدو أنهم على استعداد للتندر على تلك اللعبة الصبيانية السهلة التى يكسب بها النفر الحق فى المرور راكبا أمام عبد القادر الذى يبدو على استعداد لمشاكسة خلق الله بسبب وبدون سبب، لكنهم بعد خطوات وجدوا مرزوق يتعثر فى خطواته وببطء يسير عاجزا عن أن يصلب طوله بينهم، سندوه وهم يحاولون أن يداروا ذلك عن عبد القادر الذى كان يتابع فى قلق غامض ثم انطلقت ضحكته تجلجل وتدوى فى أركان البوابة وتتسرب الى الأبواب فى الأزقة والمنعطفات

والحوارى القريبة.

فى الدار طلب مرزوق لبنا رائبا وهمس لمن أحاطوا به فزعين فى قلق :

– مفيش حاجه، نفسى زى ما تكون غامه على.

شرب الكثير من اللبن الرائب ثم طرد ما كان فى جوفه من بقايا مأكولات لم يصرفها، شرب المزيد والمزيد ثم أرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانية عكرت بياض اللبن، شرب وأرجع ثم شرب وأرجع، كان يتصبب عرقا وفطوم تسنده على صدرها :

– باين كلت حاجه مسمومه فى البندر .

قالها بعسر ثم تدحرج بألم واستكان على الأرض، قام بصعوبة وسط دهشة كل أولاد شلبى الملمومين حوله، استند على كيس القطن المكبوس فى صحن الدار، طالبنا بأن نغطيه، غطته العمه فطوم بحرام صوف، تصبب العرق على صدره عبر عنقه ووجهه «المزرود»، سندناه وأرقدناه وغطيناه حتى جاء الجد هارون، أفاق مرزوق من غفوته عندما سمع صوت الجد هارون، همس له بعسر قبل أذان الفجر :

– لوت نفدت بعمرى يابا الحاج .. ح أركب الحمار، وأعدى رايح جاى .. رايح جاى، قصاد عبد القادر ..، لو فاتت على خير

ح ابقى كسبت يابا الحاج .

كان الجد هارون يهز رأسه فى يأس ومرارة. وكان يبدو أنه عرف النهاية قبل وقوعها، ذلك أنه فى وقت الضحى خبا وجه مرزوق وانطفأ وكف عن الأنين والهمس والحركة وفاتت على الدرب سحابة معتمة سودت النهار، وما أفاد فيه لطم ولاندب ولا بكاء.

جريدة الأهرام ٨٧/٥/٢٢

مواسم الشروق

اعتدنا سماع سيرته كلما تجددت ذكراه فى أمسيات المواسم والأعياد، إرتحنا لتصديق أنه جاء قبلنا إلى الدنيا ورحل عنها دون أن نراه، جاريناهما رغم الوساوس التى كان يبثها فى عقولنا شيطان فاسق بأنه ما كان ولا صار أبدا، لعلنا كنا نحتاجه مثلهما وأكثر، كنا ننسى ونتحدث عنه للبنات فى مثل أعمارنا وكأنه حقيقة حية فنتعرض للسخريات والتكذيبات وكنا نتخيله شابا فى مثل عمر «البكرى» وان كان أكثر جمالا وأخف ظلا.

كانت سيرته تنفتح فى تلك الأمسيات فينقلب ميزان البيت، تتوارى الضحكات وتختفى ويعشش الصمت المحزون، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سوف يأتى فى مستقبل الأيام، ولأن لكل أعمامنا خلفة من الصبيان كانت تتجدد الأحزان، يدخل أبى فى المساء متأخرا على غير عادته وقد تغيرت ملامحه، لا ينظر الى أى واحدة منا أو يلاغينا يبدو

غـاضـبـا على البـيت والدكـان ونـاس الكفـر، القـريب منهم قـبل الغريب، يجلس فى ركن القاعة ويصب اللعنات تكتفى هى بالنظر اليـه وكأنها تستشيره فيهز رأسه بالايجاب تدحرج الطبلية وتحطها فى منتصف القاعة، ترص عليها أطباق الطعام الذى بذلنا فيه جهد اليوم بطوله، تجلس وتنتظر منه أن يبدأ وكثيرا ماكان يبدأ :

– لأجل خاطر العيال.

يقول ورأسه تميل حتى تتلامس حلمة اذنه اليسرى مع الثوب فـوق كـتـفـه، يبـقى فـتـرة على تلك الحـال غـارقـا فى تفكيـره ومسترجعا ماكان، ساعتها لا تمتد يد أى واحدة منا، حتى جواهر التى كانت فى الخامسة أو السادسة تجلس ساكنة تتأمله، وكثيرا ماكان يبدأ بنفس الكلمات التى قالها فى مساء الموسم السابق :

– لو كان الولد ده عاش ماكانتش راسنا ميلت لحد .

يزفـر فى ضـيق وهو ينظر الى الطعـام، أنظر اليـهـا فـأرى الحزن وقد تسلل إلى تقاطيعها كانت تبدو عاجزة عن الرد أو التـعليق بشىء مناسب، نتـبـادل النظرات، تقـول هى وكـأنما تخاطب روحا تحوم فى فراغ «يا كبدى» بعدها تسحب طبلية

العشاء أكثر نحوها وتؤكد أن نفسها «مصدودة» عن زاد الدنيا، نتكور نحن فى الأركان ونكتم الأنفاس، تقوم البنت جواهر دون حوار وتتناول الأطباق من يد أمى، تخرج بها ثم تعود لتأخذ غيرها حتى تخلو «طبلية» العشاء تزيحها وترفع قوائمها لتسندها مكانها على الجدار، ربما يعوى كلب غريب فتنكمش أكثر يستعيذ هو بالله من الشيطان وتطرد هى براحتيها الشر وهى تهمس «بعيد عنا بعيد .. بعيد عنا بعيد ..» يتباعد صوت الكلب بعد مدة تطول أو تقصر لكنها تخلف فى نفوسنا الرهبة، نتمدد فى نفس أماكننا، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لى أنه يخبو، كنت أراها وهى تحنى رأسها وترتكز به على راحتيها المفرودتين بينما الكوعان مسنودان على الركبتين كعادتها عندما تذهب للعزاء فى الأموات :

– ابن عمى، ماحدش غريب، شمتان يا أم البنات

يقولها أبى بصوته المنكسر وعيناه سارحتان فى فراغ العتمة البعيد، لا ترفع هى الرأس أو تتحرك، تثبت على حالها «ملمومة» على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسنودا على قوائم السرير، يئز الحديد ويحادث نفسه متشكيا :

–زى ما أكون مش قادر أصلب طولى.

تقوم هى من مكانها تغطيه وهو يتمدد ثم تستدير نحونا، ترمى علينا حرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب الينا الهواء الرطب أولا ثم نشعر بالدفء، يشحب ضوء المصباح أكثر وقد يسيطر الظلام، تخرج هى من القاعة ربما لتقضى حاجتها ثم تعود تتحسس بقدميها الأرض حتى لا تدوس فوق واحدة منا، تصعد الى جواره ويكف السرير عن الاهتزاز، ورغم صحونا جميعا الا أنهما لا يوجهان الينا كلمة، يتبادلان الحديث همسا مسموعا ربما بنفس البدايات والنهايات التى سمعناها قبلا :

– مالحقناش نفرح بيه.

– نصيب يا عبد الستار

– نصيب أغبر، يعنى لو كان عاش كانت الدنيا ح تنهد ؟ أهو كان يبقى لبناتك أخ.

– منه العوض وعليه العوض

– امتى بس ؟

– قادر يديك لجل خاطر الولايا دول

– ياريت

كانت البنت جواهر تتحرك كثيرا تحت الحرام، أحيانا كانت

تتحاور معنا بصوت خافت يفسد علينا حسن الاستماع، ترفع صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها واحدة منا بأن تنام، تسكت فيسود الصمت فى المكان، نسمع أصوات العابرين فى الشارع أو نقيق ضفدع فى المصرف القديم، تلبد جواهر فى حضنى وكأنما تهرب من جنى يطاردها، أشعر بيتمها رغم وجود الأم والأب فأداديها حتى تنام، أسمع صوت أنفاس عطيات المتلاحقة فأتحسس شعرها المحلول، تربت هى على يدى بنعومة وحنان تغرق سعدية فى النوم ويصدر عنها شخير خافت لا يكف الا بعد أن أضع رأسها فوق الوسادة، أسرح بعقلى بعيدا وأقول لنفسى أن جرحيهما غويط وربما لا يطيب وأن النار التى تحرقهما بلسعة الحرمان من الولد قد لا تنطفىء أبدا، أسمع صوتيهما يعاودان التذكر بلوعة فأبكى :

– أم الباتعة قالت ولد صحيت لروحى وقلت لها هاتيه كان وشه ابيض زى اللبن الحليب

– يومها جانى المرسى فى الدكان، كان وشه أصفر وعنيه زايغة، بشرنى من تحت ضرسه وماسابنيش غير لما طفح قزازتين بيبسى وخد قمع سكر وقزازتين شربات .

– كانت عنيه مفنجلة وتشيله اسم النبى حارسه تقول ابن سنه.

– كان ابن موت، أبص له يضحكلى، هو فيه فى الدنيا عيل ابن يومين يعرف ابوه ؟

– اللى تحت الأرض خبطوه، كان ياضنايا مطرح الكف فى ظهره بالخمس صوابع معلمين.

– جايلى النهاردة يعايرنى بخلفة الصبيان

– قادر يعوض عليك صاحب العوض

– يا ريت.

يقولها ثم يزفر، يستغفر الله فى حرارة ويغمغم فى استسلام وتراخ، يسألها فى همس ان كانت قد غطتنا جيدا فترد بالايجاب أسمع صوتيهما يواسيها وتواسيه ويحلمان معا بولد جديد، أسمع ضحكاتها الخافتة التى تتوارى وتتخفى وهمساته لها يوصيها بالحرص والسكون.

* * *

– العيال رقدوا من غير عشا، قومى سخنى لهم الأكل

يقولها أبى بصوت مسموع تنزل هى وتتحسس بقدميها أرضية القاعة، تعالج المصباح فيبعث ضوءه فى كل الأركان، تخرج هى من القاعة وأسمع نحنحاته ونداءاته المتكررة لى، أستجيب بعد النداءات الأولى وأقعد مكانى أدعك عيناى فأراه

مسنودا بكوعه على طرف الوسادة :

– دى ليلة مفترجة يا ولاد، صحيهم يا شوق

فأشرع فى ايقاظ البنات، تقوم جواهر أولا وكأنها قرد انفلت من يد القرداتى، تقفز طالعة اليه على السرير فيداعبها ويلاعبها، تلملم عطيات خصلات شعرها وتدق بقبضتها المضمومة ظهر سعدية التى تصحو بعسر وهى تتأفف راجية أن نتركها تنام دون جدوى، أخرج وأبدأ فى تسخين العشاء الذى يكون قد برد تماما، تجىء أمى من صحن الدار وعلى وجهها بسمة هادئة، تحدثنى عن أولاد الحرام من أعمامى الذين يعايرون أبى بانعدام خلفته من الصبيان، تدعى عليهم بما شاءت لأنهم يعكرون دمه، تنادى على البنات وتكلف كل واحدة بعمل شىء ليتأكد صحوهن، تدخل الى القاعة وقد تلتف بالحرام طلبا للدفء، أتبادل مع البنات خلسة كل ما سمعناه ونتضاحك، يصل الأمر أحيانا أن تنكر واحدة منا حكاية الولد من أساسها ونتهامس فى خفوت :

–طب كان اسمه ايه الولد ده ؟

– يابت دا مات قبل السبوع بيوم

– يمكن بقى

– طب اندفن فين ؟

– اسأليهم، اندفن مطرح ما اندفن .

تنفلت منا الضحكات ويسمعان، ربما يستفسران عن الأسباب دون اعتراض ويتضاحكان ومن جديد تنحط «طبلية العشاء» ومن فوقها الأطباق، تعدل له المسند جنب الجدار فينزل ويجلس، يلاغينا ويضاحكنا على عادته، يقسم علينا لحم الطيور ويناولها نصيبها فتأخذ منه ما يكفيها وتضع الباقى فوق نصيبه فلا يعترض بشىء، يشرع فى الأكل بشهية فتنفتح نفوسنا ونأكل، يقول بسخرية بينما يأكل :

– جانى المرسى قبل المغرب بساعه قعد على باب الدكان، ماتعرفوش كان طمعان فى ايه ؟

– الراجل ده مابيشبعش ؟

– بطنه واسعة يا أم البنات ماسألتش فيه

– عشان كده

– وكان عامل انه بيضحك لكن قاصدها

– ينقطع لسانه

– بيقوللى مين ياخد واحده من بناتك مالهاش أخ يترد عليه قلت له اخرس يا خنزير .

– بناتك حلوه والف مين يتمناهم .

– دى الواحده عندى بألف راجل .

– ومن عارف ؟ مش يمكن يبقى لهم بدل الأخ اتنين

– وتلاته كمان.

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرة مباهية وراضية بقسمته، ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وكلما امتد الوقت زاد الصحو فى العيون وتشعبت مواضيع الحديث بعيدا بعيدا عن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزو قلوبنا فى هدوء، وربما نسمع أذان الفجر من زاوية أولاد عوف وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار.

جريدة الأهرام ٨٥/٤/١٢

بغلة المواطن غالب المنصور

إغفروا لى تلك الجسارة التى أصابتنى وتملكتنى ودفعتنى دفعا لأن أبوح لكم ببعض ما جرى لى فى تلك الليلة الغريبة التى إختلط فيها كل شيء بكل شيء إلى درجة أربكتنى وأوعزت لى بأن أتشكى من تلك المدينة التى كنت قد حسبتها صفت وراقت أو على الأقل خففت من كراهتها لى بعد زمن طال لازمتها خلاله، أكابد واقاوم وأحرص على قراءة الصحف، وحكايتى مع الصحف يطول شرحها، ولعلنى لو أسعفنى الوقت وطاوعتنى الألفاظ أحدثكم عن غرامى بتلك الأوراق التى إصفرت بفعل الزمن، هو عشق قديم على أى حال، وأنا العاشق أحمى معشوقى وأحرص عليه حرص الشحيح الضنين، لا أفرط فى قصاصة منه، وفيا للوعد الذى قطعته على نفسى بنفسى، كنت قد قلت لروحى وقد تزايدت الأوراق وزحفت الى كل مكان :

– «حافظ عليها يا ولد فهى عصارة عقول نذرت نفسها لمن يعشقون الوطن، وانت عاشق للوطن، من خلال أوراقها عشقته

الى حد الذوبان، ولا بد أن اوراق الصحف إكتشفتك أولا ثم أنتظمت فى المجىء كل صباح ولم تخلف موعدا، تقلب أنت صفحاتها أو تستمتع برسومها وصورها الملونة أو التى كانت ملونة وتلك التى لم تكن ملونة على أى نحو، وحالما كنت تقرأ السطور وأنت تهز رأسك إرتياحا لأن إيمانك الراسخ كان يتأكد فى كل مرة بأنك لم تخطىء الأختيار، كانت كل الأشياء من حولك تبدو واضحة جلية، وليس هناك فى الدنيا أفضل من إيمان الرجل بعقيدة يزداد رسوخها أو وطن يفنى فى عشقه أو حتى فكرة أو حب متجرد لمعنى أو مثال أو قيمة، فاهنأ يا ولد لأنك بفضل أوراق الصحف أحببت الوطن، تاريخه القديم والمعاصر، المكتوب وغير المكتوب، المحسوس والملموس وما يتخفى بين السطور، وكله كله بفضل أوراق الصحف التى تسعى اليك فى حقيقة الأمر أكثر من سعيك انت اليها، دعك من تلك التفاصيل البلهاء عن كونك تشتريها وتدفع، فالمسألة ليست مجرد مبالغ تدفعها من حر مالكا لتحصل عليها، أنت على سبيل المثال تدفع دائما ثمن كل شئ، مثلا مثلا، أنت تدفع ثمن الوجبات المتكررة، فول وجبن وفلافل وعدس ولحوم وأسماك وبامية وقرع ومخللات وسلطات، خضروات وبروتينات وفواكه وبقول لا حصر لها وكلها

من خيرات الوطن، لكنها ذهبت - ويا لسوء المآل - في المجاري، ماذا تبقى لك من كل تلك الأحمال التي كنت تلفعها على صدرك وأنت راجع من مكتبك وفي جيب سترتك جريدة الصباح ؟ لا شيء ... كنت تبلع وتملأ كرشك ثم تتمطى كقط شبعان، تتثاءب وتنام ثم تصحو لتملأ كرشك مرة أخرى وتتمطى وتتثاءب، وكل شيء الى زوال، وما تبقى لك يوما غير الجوع مهما أكلت وهضمت أو عانيت من التخمة، كان الجوع يأتي قبل الوجبات وبين الوجبات وأحيانا كنت تحسه أثناء الوجبات، جوع متواصل لا سبيل إلى الخلاص منه، ولا بد أنك لم تحسب كم مرة في اليوم شعرت بالجوع وكم مرة شعرت به في الشهر والعام والعمر، لو حسبتها لتهت في الحساب، شبعك الحقيقي كان في الأوراق التي إحتفظت بها في مسكنك ولم تفرط فيها أبدا، هي كنزك وثروتك التي لا تقدر بثمن والتي يلزم أن تستمر في حراستها وحمايتها من كل المخاطر، كأنها وطن، وطنك أنت على الأقل، فأنت تسكنها بقدر ما تسكنك، تعشقها بقدر ما تعشقك، ووقتما تشاء تستعيد الزمان والأحداث وتسترجع الناس الذين رحلوا من خلالها أقارب وغرباء وأنت الوحيد، تحس بالدفء الإنساني كما يقولون، وتستعيض من خلالها بالونس ما ينسيك

وحدتك القاسية لأنه ليست لك خلفة ولا زوج وقد تخطيت السبعين»

بمثل تلك العبارات المطوطة كنت أتحدث إلى نفسى بصوت مسموع، هى عادة قديمة على كل حال، الحديث إلى النفس بصوت مسموع، فطوال عمرى كنت أتحدث إلى نفسى بهذه الكيفية، فى السابق كنت أخفض من صوتى بحيث أسمعه وحدى، لكننى لم أعد أهتم، ربما لأننى لم أعد وحدى الذى يكلم نفسه بصوت مسموع، أصبح لى شركاء أوشك أن أعرفهم وأعرف الشوارع التى يعبرونها وفى أى الأوقات يمكن أن ألتقى بهم، أراقبهم ولا أتبادل معهم أى حوار، هم على كل حال نوع آخر من البشر، نوع فاقد للسيطرة على تصرفاته اللائقة، مفلوت عيارهم كما يقال لكن حالتى شىء مختلف، فطوال عمرى أكلم نفسى وبصوت ولدى الأسباب، أنا رجل وحيد، وحيد وحدة خالصة ومشغول بأمور خطيرة، صحيح أننى لست مفكراً أو فيلسوفاً أو كاتباً فى صحيفة يبرع فى عرض الأفكار ومعكوس نفس الأفكار فى الشهر الواحد مرة واحدة على الأقل، لكننى قارئ لهم، أترصد اقلامهم وارسمها فى مخيلتى وهى مثل بندول الساعة أحيانا، أو الصواريخ الموجهة فى أحيان أخرى، ولكل

واحد منهم فى ذاكرتى خانة، ولست ادرى إن كان من حق المواطن الطيب أن يفعل مثل هذه الأفعال دون أن يلام على جرأته فى الحكم على حملة الاقلام ؟ لكنه حدث ووجدتنى بسبب تلك الأكوام من الصحف مشدودا للحكم عليهم، وأنتم تعرفون أن الناس لا تتساوى فى شىء، فيهم الوضيع والمتواضع والعظيم والمتعاظم، الذكى والمتذاكى وفيهم وفيهم، السادة والنبلاء والصعاليك والعبيد، الأسافل والأرازل والمتسلقون والمتعففون، إننى أنزلق الآن الى بؤرة البوح ويلزم أيها السادة أن أتراجع قليلا ما دمنا قد حددنا سلفا أن تلك الليلة الغريبة التى إختلط فيها كل شىء بكل شىء كانت هى البداية، ولا يحق لى أن أتخطاها لأحدثكم عما جرى بعدها وما إستكشفته تباعا من أمور السادة الذين كنت أكن لهم كل توقير وإجلال، كنت أقدس أسماءهم وأرد بحماس المؤمن بكل ما يطرحونه من أفكار حتى حدث ما حدث وخرجت من غير اسف من دائرة الإنبهار والتبعية المطلقة الى منطقة الشك والرغبة فى المراجعة، مراجعة الأفكار والآراء والأساليب والمصائر، والورق أس البلاء، هو المعشوق الذى يضعك فى مواجهة نفسك وربما أيضا فى مواجهة العالم بأسره، ووحده الورق المكتوب بالصدق أو بالزيف هو القادر على

إيقاظك وقت اللزوم والقادر أيضا على تنويمك أو عزلك عن كل ما يدور حولك فى هذه الدنيا وأنت واهم أنك فى بؤرة الأحداث، شىء مثل هذا حدث لى ويلزم أن أحدثكم عنه، أحدثكم بالتحديد عن صراصير الورق، هناك فى هذه الدنيا صراصير خاصة بالورق أو متخصصة فى الورق.

* * *

عيبى ومنذ البدايات القديمة أننى نوّام، نوّام بطبعى، ربما يتوافق ذلك مع ما جرى مؤخرا، فجأة ودون مقدمات تكتشف الأسباب التى أوصلتك الى ما وصلت اليه، لكن الخطير هو أن يحدث ذلك بعد فوات الأوان، كان المرحوم أبى من دعاة الصحو المبكر وكان يقول لى فى كل مساء أن للصحو المبكر سبع فوائد، والحقيقة أن الرجل كان يقولها لوجه الله الكريم ولا أستجيب، كان يستيقظ قبل الفجر بساعة أو أكثر، يتوضأ ويقرأ القرآن فى القاعة ثم يذهب الى الزاوية ليؤذن للناس، يذكرهم فى كل مرة أن الصلاة خير من النوم، وكان بعض الناس يستجيبون ويأتون فكان هو يباهى بذلك، يتلقى كراهية الشيخ الضرير ذو الصوت الأجش الذى يعظ الناس فى خطبة الجمعة، ويبدو أن الشيخ الضرير كان يعاير أبى بسبب غيابى عن صلاة الفجر، يعايره

مستشهدا بابنه الذى كان فى مثل عمرى والذى كان يقوده لتأدية فريضة الصلاة فى كل فجر، وأحسب أن أبى حاول معى بكل الوسائل، بالكلام الطيب والتوبيخ والضرب والحرمان من المصروف والأكل أحيانا، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، ويبدو أن فشله معى ولد فى قلبه حسرة كبيرة وبانت على تقاطيعه الأحزان والتجاعيد المهمومة، ولما كبرت تزايد الكدر على ملامحه بينما يقول لى بأسى على مسمع من أمى :

– خيبت أملى فيك يا بغل

ويضيف بيأس خالص

– عليه العوض ومنه العوض

ولأننى كنت وحيده فقد ظل يحاول ويحاول، وفى الدنيا ناس لهم أدمغة مثل أدمغة البغال أو الحمير الحصاوى، هؤلاء الناس البسطاء يعجزون عن الإستجابة لأطنان النصائح، وليس فى الأمر رغبة فى العناد أو العصيان، وربما كان العكس هو الصحيح على طول الخط، ناس عندهم رغبة فى الطاعة مع إستحالة تحقيقها، ولقد تبدى لى فى لحظة كشف نادرة أننى كنت فى ذلك الزمان مجرد بغل أو حمار حصاوى عاجز عن تأدية طقس الصحو المبكر ليرتاح أبى ويهدأ، يرد كيد العدو،

لكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، كان لابد للبغل أن يتخطى الحاجز المستحيل وكان من المستحيل أن يفعل، وكل بغل فى هذه الدنيا مزود بجهاز الطاعة العمياء والإحتمال، راضيا ووديعا تركبه وتضربه وتنخسه ولا يكل ولا يمل، ولأن البغل ليس حصانا او حمارا فهو فان فى هذه الدنيا الظالم أهلها، يدرك البغل تلك الحقيقة البسيطة ويتعامل على أساس أنه جاء الى الدنيا بفعل الصدفة المدبرة عندما التقى حصان وأتان أو فرس وحمار فى لحظة شبق ضد قانون النوعين ليطلع الهجين الفانى بعد عمر يطول أو يقصر دون خلفه أو ولادة، لكنه يعرف تلك الحقيقة البسيطة رغم كونه بغلا، تستعبده وتشقيه وتأخذ حصيلة جهد عمره كله بإعتباره سخرة بكماء لقاء حبات من الفول وحفنات من التبن، وعندك الكرباج تسوطه إذا تباطأ أو بدا لك أنه تباطأ، وتصدق تلك الفرية الشائعة بأنه لا يحس وأنه لا يتألم، صدقونى يا سادة أن بغال العالم، كل بغال العالم تتألم وتتوجع وتكتم الوجع، هى على أى حال كائنات تعسة سقطت فى أياديكم لتخدمكم ثم تغنى وقد سلبت منها كل حقوقها حتى حقها فى أن تتكاثر وتتوالد شأن كل كائن حى يحافظ على نوعه مثلما تفعل بحرية أحط أنواع الحشرات، وأى منصف لابد أن يدافع عن تلك

البغال التعسة، أذكر تلك البغلة التى كانت فى دارنا، نباهى بها ونشغلها الوقت كله وهى تطاوع حتى أصابها ما أصابها، فذات مساء سقطت وعجزت عن القيام مجرد القيام، رأيتهم وهم يرفعونها بكل العسر من وسط الدار ويحملونها فوق عربة يجرها حصان ثم يذهبون بها إلى جسر المصرف، يدحرجونها وينفضون أياديهم، كانت الشمس تسقط على عينيها المفتوحتين فى ظهيرة ذلك اليوم من «بؤونة الحجر»، وجلسنا كما اشار أبى تحت ظل شجرة التوت، ننتظر وصول كامل الدباغ الذى ما إن وصل حتى تحدث مع أبى سائلا إن كانت البغلة فيها الروح ما زالت ؟ فأشار اليه ليرى بنفسه، كان كامل الدباغ يبدو متعجلاً، أطل على البغلة وعاد ثم جلس متأففا، هز راسه وهو يشرب كوب الشاى ثم إقترح :

– نخلص عليها

فكر أبى، ربما صعب عليه حال البغلة، إستمهله وأوصاه بعدم سلخ الجلد ما دامت تتحرك بما يفيد أن فيها روح ما تزال، لكن كامل لم يكن على استعداد لمزيد من الانتظار وقد ابتلع محتويات كوب الشاى، تناول حجرا مركوناً على شط المصرف وراح يضرب البغلة فوق أم رأسها والبغلة ترفس الهواء فيعاود

ضربها بعزم أكثر، ولا بد أنها كانت تتوجع والدم ينزف منها وكامل الدباغ غارق فى عرقه بسبب الجهد الذى يبذله، لكنه عندما رآها تنتفض عدة إنتفاضات حسب أنها بداية النهاية أو علامة تبشر بطلوع الروح الوشيك، قيد سيقانها بالحبل وقد كفت البغلة عن تحريكها، بدأ يسلخ جلدها من منطقة البطن دون أن ينشغل بقطرات الدم التى كانت تلوث خنصره وكف يده التى تسلخ، ولكن أبى سحبنى لأجلس تحت ظل التوتة حتى لا تصيبنى ضربة شمس كما قال محذرا، ولم يطل الوقت وربما طال ولم أشعر إلا وأبى يهزنى فأفتح عينى لأرى جلد البغلة على كتف كامل الدباغ، نظرت الى البغلة وبدا لى أنها كانت تتنفس والشمس تنعكس على العينين اللامعتين المفتوحتين تتشكيان بلا دموع من عرى لحمها الذى تكاثرت عليه أسراب الذباب

* * *

- إصحى يا بغل

قالها أبى قبل أن يخرج على عادته لصلاة الفجر فلم أطاوعه، تذكرت البغلة وربما على غير وعى قررت أن أعاند وأستمر فى النوم، لكنه بعد أن عاد وحاول إيقاظى قمت ببساطة ولبست ثيابى وخرجت فى طريقى الى المدرسة الكائنة فى البندر، كان

طابور الصباح قد تحرك في إتجاه الفصول، وكان مدرس الألعاب عند الباب يحتجز المتأخرين أمثالي، طوح بعصاه وأصدر حكمه :

- إفرد إيدك يا بغل، أربع عصيان

أعادت العبارة بغلتنا المسلوخة الى الذاكرة، حزنت من أجلها وهان على الوجع الذى سببته ضربتان شديدتان على كف كل يد، وربما من بعدها أصبح من المألوف أن أصل بعد أن يتحرك طابور الصباح، وبآلية كنت أفتح راحتى بالتبادل وأتلقى الضربات وصفة البغل، وفى كل مرة كنت أحس فيها بالوجع أتذكر كامل الدباغ - ولا أدرى لماذا كنت اتذكره - لحظة أن كانت كفه ملوثة بالدم، كنت اكرهه الى الحد الذى يجعلنى اكره نفسى لأننى من نفس العائلة الصغيرة، كنت على وجه التحديد أكره إسمي، غالب الدباغ .. لكننى أبدا لم أجرؤ على البوح بتلك الكراهية لأحد ولست أدرى أى نوع من العلاقة بين كراهية الاسم وتلك الرغبة فى الصحو المتأخر ؟ كانت نصائح أبى تتوالى لكى أصحو مبكرا كما كان يحدث فى السابق، وكان أبى يحاول قدر جهده وأعاند، يهزنى يعنف ولا أقوم، أتمنى فى بعض الأحيان أن ينهد سقف القاعة على رؤوسنا لكى أخلص من

محاولاته لإيقاظى، ومرة بدا لى أن الحل ممكن إذا قمت وسكبت على رأسى زجاجة «الجاز» وأشعلت عود الثقاب ثم قربته من رأسى، هل فكرت أو إندفعت بغير إرادة منى لأفعل ما بدا لى أنه الحل الوحيد ؟ لقد فعلتها، سكبت على رأسى زجاجة «الجاز» وأشعلت عود الثقاب ثم قربته من طرف جلبابى بعيدا عن دماغى، لا بد أننى كنت بين النوم واليقظة، ولعلنى قلت كلاما عن رغبتى فى أن أرتاح وأريحهم منى، قالوا اننى قلت مثل ذلك الكلام فلا بد أن أكون قد قلته، هل كان الصهد يحوطنى ويشملنى لأننى اشتعلت بالفعل ؟ وهل أفقت من غفوتى الصاحية أو صحوتى الغافية وقد إنطفات ؟ ومن ذلك الأب الذى نجح فى إطفائى فلا احترقت ولا ارتحت ؟ يصعب على الآن أن أتذكر التفاصيل، لكننى من يومها صرت فى الدار بغلا رسميا، عنيدا الى حد اوصل أبى الى حالة من اليأس الكامل أو التسليم بالواقع الجديد، ولعلنى كنت ألاحظ التجاعيد وهى تزحف الى ملامحه، وربما لم أصدق دعواه المتكررة بأن الهم سكن قلبه وأن خيبة رجائه فى اصلاحى سوف تقضى على ما تبقى من عمره، لم أصدقه حتى مات بالفعل فانصدمت، أورثنى دارا قديمة من الطوب اللبن وإحساساً قاسياً بالذنب أكدته إشاعة رددها الناس

فى قريتنا بأننى قتلته، إستشهدوا بشكاياته منى وآمنوا بأننى قضيت عليه بقصد قبل الأوان، كان الواعظ الضرير الذى كان يكره أبى طوال عمره يعلن لهم فى صلاة الجمعة أن فى كفرهم إبن عاق ويلزم إخراجه من زمامه، وكان من العسير على صبى فى الخامسة عشر أن يدافع عن نفسه ويذكر لهم مثلا أن «لكل أجل كتاب» وفى كفرنا وكل الكفور المجاورة والبعيدة ينطبق المثل القائل «من له ظهر لا ينضرب على بطنه»، وكان ظهرى وسندى فى كفرنا قد راح منى فمن كان لى من بعده يحمينى ويدافع عنى وأسرتنا نفسها جماعة دباغين جوالين من كفر الى كفر ومن بندر لمركز ؟ كامل الدباغ فات الكفر وهج الى أرض البرارى وهو ابن عم الأب، وبقيتهم يسرحون على شطوط الترع والمصارف بحثا عن حمار ميت أو جحش فطسان ليسلخ جلده ويدبغه ويبيعه، ولابد أنه ليس هناك فى الدنيا أقسى من خروج صبى رغم إرادته من كفر عاش فيه عمره بتهمة زائفة لا يملك القدرة على نفيها، ولم يكن فى الأمر أكثر من عجز عن الدفاع عن النفس أو إثبات عكس ما كان يشاع بتحريضات الواعظ الضرير

* * *

مشكلة المشاكل بدأت بصرصار، مجرد صرصار حر يتجول فى هداة الليل كما يحلو له، ولقد عشت عمرى الذى طال دون أن تكون هناك أدنى علاقة بينى وبين تلك الكائنات، مالى أنا بالصراصير ؟ علاقتى بها هامشية إلى أبعد الحدود، أو هكذا كانت حتى حدث ما حدث فى تلك الأمسية عندما شعرت بحركته أولا وهو يزحف على جسدى الراقد فى إستكانة، ولا بد أننى أزحته عنى وعاد أكثر من مرة إلى حد إقلاقى من النوم، قمت وأضأت مصباح الحجرة لأراه، صرصار أصفر يتجول فى المكان، ليتنى قتلته لأخلص منه وأعاود النوم، لكننى لم أفعل، جلست أتأمله وهو يفر ويختبىء بين أوراق حزمة من أوراق الصحف، ثم يمد قرون إستشعاره ويتبعها خارجاً برأسه أولا، وعند أول حركة ولو كانت هزيلة كان يعاود الإختباء، فقلت لنفسى :

– «أنت يا ولد قارئ صحف، ضيعت عمرك فى قراءة الصحف والإحتفاظ بها، هى كنزك الذى لا يقدر بثمن، ولو عرفت الصراصير طريقها الى الصحف لفسد كل شىء وراح تعبك هدراً، تأمل الصرصار وتأكد من أنه واحد ضل طريقه الى المكان، وعندما تطمئن يحق لك أن تنام.

ولعلها المرة الوحيدة التى أقوم فيها من غفلتى وأستشعر القلق على هذا النحو البشع، اجرب الأرق الذى سمعت عنه دون أن أجربه، تجولت فى كل الأركان لأطمئن على كنزى المربوط فى حزمات، خمسون عاما أو تزيد وأنا حريص على أوراقها ومنذ أول صحيفة اشتريتها ولم أفرط فى ورقة منها لأنها كانت تحمل إسمى بين أسماء من نجحوا فى الشهادة الإبتدائية فاحتفظت بها مثل كل تلك الصحف التى إحتفظت بها بعد ذلك، كانت غرامى وعشقى، فيها أقرأ عن كل شىء، عن الوفد أيام سعد زغلول ومن بعده النحاس، عن الشباب الذين خرجوا فى مظاهرات وهتفوا «الجلاء بالدماء» وكتابات عن الإستعمار قبل أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل، وعن القناة التى تأممت والسد الذى إنبنى ومقبرة الغزاة، وفيها إعلانات عن تأسيس شركة الحديد والصلب ثم العدوان والوحدة والإنفصال والنكسة والعبور والصلح ومحادثاته والإنفتاح وحادث المنصة ومحادثات طابا واكتمال النصر، فيها مبالغات عن مليارات تم تهريبها الى الخارج وديون وشركات إستثمار وهمية وتوظيف أموال ومحاكمات لبعض الأكابر الذين إنكشف للناس أمرهم وإنحرقت أوراقهم، جرائم وبطولات وحماقات ومحاكمات لم تكن تخطر

على بال، كتابات لها قيمة ومعنى وبلاهات، ثروة طائلة تساوى أعمار من عاشوها ومن رحلوا، ثروة لا يقدرها حق قدرها غير قديس أو راهب نذر نفسه للحفاظ على كل قصاصة منها، ثم يأتى الصرصار اللعين ويخيفنى ويقلقنى ويصيبنى بالأرق لأول مرة فى حياتى، قلت اشترى عبوة المبيد الحشرى التى يعلنون عنها مؤكدين أنها تقضى على أقوى صرصار، وانتظرت حتى طلع النهار فخرجت واشتريت علبة المبيد الحشرى واستخدمتها بإسراف حتى أفرغتها تماما، لعلنى شعرت بنوع من الارتياح، إرتياح من أدى واجبه على أكمل وجه ويحق له أن ينام .

* * *

فى الليلة التالية حدث نفس الشىء، تحرك الصرصار فوق بدنى المهدود فقمت مفزوعا، رأيته .. نفس الصرصار الأصفر وهو يكر ويفر، يتوارى بنشاط مدهش بين أوراق الصحف ويتلصص بقرنى إستشعاره ليعرف موقعى ثم يختبىء، كأنه يلاعبنى ويكيدنى ويسخر من عبوة المبيد التى أفرغتها فى الصباح الباكر من نفس اليوم، ليلتها سهرت بالقلق والأرق والخوف على كنزى المرصوص فى كل أركان المسكن، وقلت لنفسى :

– فى الصباح أغير الصنف

نفذت قرارى وغيرت الصنف، أفرغت العبوة الأخرى عن آخرها وانتظرت النتيجة فى المساء، لكنه فى المساء داهمنى الصرصار، ربما يكون هو نفس الصرصار لكنه إزداد جرأة الى حد أنه كان يتمشى على ظهرى فلا تطاله يداى، وعندما أغفل أحسه على رأسى وعنقى، أدفعها بعيداً عنى فيبتعد ثم يعاود بجسارة إرهابى متمرس على الإقلاق وتغيير الدم، أقولها لكم بكل الصدق يا سادة ؟ غيرت الصنف مرات ومرات ومرات، يمكن أن اؤكد لكم أننى جربت كل الاصناف المطروحة فى السوق ووصفات العطارين والجيران بلا فائدة، المفزع، المفزع بحق أن الصرصار تكاثر وبسرعة تفوق كل التوقعات، أصبح جيشا من الصراصير جاهزة لشن الهجوم بعد الهجوم وبث الرعب فى القلب، كنت أطاردهم بنعال الأحذية والشباشب والمكانس، أقتل الواحد منها فيظهر بدلا منه العشرات، المئات، صراصير فى كل الأركان وغيرها يتغلغل بضراوة بين أوراق الكنز ويصل الى تلك الأوراق التى كنت أعتبرها بحساباتى أوراق عمرى والتى إحتفظت بها فوق الفراش الذى كنت أستخدمه للرقاد لكنه طالها، صار المسكن مستعمرة صراصير،

فى المطبخ بين أكياس الخزين، فى الثلاجة داخل علب الجبن والحلوى وفوق حبات الفاكهة وحتى أكياس اللحم المتجمد، صار الأمر هما يصعب الخلاص منه، وتداخل الزمان الصبح فى الظهيرة وقلب الليل وما قبل الفجر وبعده، صرت من الهول عاجزا عن تمييز الوقت أو معرفة الفارق بين الضوء الحقيقى وذلك المنبعث من لمبات «النيون» والعتمة، وتداخل الصحو مع الرقاد والقلق، عز على النوم وما عدت بقادر على أن أفصل بين ماهو حقيقى أواجهه فى صحوى وما هو كابوسى أتعذب بالوقوع فى أسره والكنز الذى امتلكته بشق الأنفس وكنت أحسبه باقياً وخالداً حتى بعد أن ينقضى عمرى يتعرض للفناء بينما كنت أرتب نفسى لإعلان رغبتى فى التبرع به لإحدى المكتبات العامة أو الجامعات، كنت أتخيل الضجيج الإعلامى الذى سوف يثار حول الرجل الذى إحتفظ بكل ورقة تخص موضوعا بعينه فى رزمة مرتبة بتواريخ الصدور، الرجل الذى كان يهدف افادة شباب الباحثين عن الحقيقة من أبناء هذا الوطن، وكنت أتحسر بينما يتحول هذا الكنز الى نفايات من أوراق ممزقة أو متآكلة الأطراف أو منحوتة من المنتصف بأسنان وحش شره وشرير، أكوام وأكوام من جزئيات الورق المفروم

تتطاير وتسكن في كل ركن، ومهما كنست أو نظفت وملأت سلال المهملات أجد المزيد والمزيد من جديد، كأنني كنت نحلة تدور حول نفسها وقد أصابتها عشرات الضربات فلا هي ماتت ولا بقي لها رجاء في البقاء، كنت أرتمي في أي مكان من كثرة الإنهاك وأرى بعيني جيوش الصراصير تزحف وتتخذ من دماغي وعنقي وكل بدني مرتعا أو محطات إستراحة فتصدر عن حركتها اصوات، اؤكد لكن إنه كانت تصدر عن تلك الصراصير بعض الأصوات، ولقد بدا لي مرة أنها كانت توبخني قائلة :

- إصحى يا بغل

وأنا من ناحيتي عدت لأتذكر البغل القديم ورقدته العاجزة عند جسر المصرف وقد سلخ قريبنا كامل الدباغ جلده وهو حي يتحرك ما يزال، لا أبالغ إن قلت لكم أن العبارة تكررت عدة مرات وطنت في أذني حتى بدا لي أن الصراصير آكلة الورق صارت قادرة على الكلام بسبب أنها ابتلعت كل هذا الكلام المكتوب، وكنت أسمعها وهي تهددني وتتوعدني بسلخ جلدي ما دمت قد صرت بغلا بحساباتها هي أيضا، وفكرت في الدار التي كنت قد ورثتها في الزمن القديم، وقلت لروحي :

- ألجأ اليها وأسكنها فراراً من مطاردات تلك الجيوش من

صراصير الورق الضارية، ولعل الشيخ الضرير الذى أخرجنى من الكفر يكون قد مات أو رحل عن الكفر، ولعل الجيران لم يأخذوها كل يحسب قدرته على الإغتصاب بوضع اليد، ولعل الهوام والجرذان لم تشغل كل أركانها

كان على أن أختار لنفسى إسما آخر - غالب المنصور - بديلا عن ذلك الإسم المخيف الذى ورثته مع الدار القديمة، وبدا لى أننى ما زلت قادرا على الإختيار بين البغلنة على وزن «البلقنة»، بمعنى أن أقبل معاملتى فى نفس قريتنا مستسلما لذلك الوصف الذى حولنى من إنسان الى مجرد بغل، على الأقل لأنه كان اكتشاف أبى، أو أن أبقى فى تلك المدينة وأبحث بين جنباتها عن مركب جديد من مواد قادرة على مساعدتى في صراعى المرير مع تلك الصراصير التى تطاردنى فى مسكنى، فلعلنى أتمكن وأنا فى هذه السن من تلك الصراصير وأبعد خطرها عنى، ويبدو أننى أصبحت عاجزاً عن الكتمان وجاهزاً أيضا لمزيد من البوح بما كان آملاً فى الخلاص، فهل أتجاوز حدودى إذا طلبت منكم المشورة أو السماح لى بمزيد من البوح لكم بمزيد من الأسرار عما كان ؟ وهل يحق لى بعد ذلك أن أطلب منكم العفو والغفران ؟

مجلة إبداع: يونيو ١٩٩١

ست الدار

فى زياراتها المتكررة إلى قبر الرجل الكبير كانت تبدو لكل من يراها مشرقة الوجه أكثر منها حزينة، خطواتها عفية رغم السنوات التى عاشتها وزادت بحسابات الكبار من أهل الكفر عن التسعين عاما، كانت تتقدم من يشاركها المشوار فى سكة المدافن بخطوة أو خطوتين، تقطع المشوار من دار الناعسة فى شرق البلد إلى بداية الطريق فى غربها مشيا على القدمين بخفة وعزم، خطواتها متعجلة يشوبها إصرار وقدرة وهم فى أعقابها يلهثون أو يزمجرون احتجاجا على إصرارها على الذهاب مشيا فى كل مرة :

– يعنى هو من قلة الحمير ف البلد ؟

– الواحد انقطع نفسه وهى بتدب ف الأرض زى الفرعون

– أبويا الله يرحمه ما شافش الراجل الكبير خالص، بس كان يصحى لها وهو يتطلع الجبانة تترحم عليه

– أبوك أهو مات وشبع موت، ويمكن لو ما كانتش هى

بتيجى ف المواسم ما كنتش انت تطلع تزوره وتفتكره

– يعنى انت اللى مقطع السكك ع اللى لك ؟

– إنت ح تعايرنى ؟ قرب قرب خلينا نحصلها وبلاش وجع قلب

على هذا النحو كانوا يتحاورون فى كل مرة، ربما كان الحوار وسيلتهم الوحيدة التى تعينهم على تكملة المشوار الطويل، وكان يتأكد للواحد منهم أكثر من مرة أنها تتسمع مثل هذه الحكايات والشكايات ولا تعيرها انتباها، ربما كانت تستخف أو تتشاغل عن سماعها باهتمام كاف لأنها بحساباتها مجرد ثرثرات لازمة لإكمال المشوار، كان الوصول إلى قبر الرجل فى كل مرة أهم عندها من مجرد التفكير فى مجاراتهم أو الدخول معهم فى ثرثرات فارغة، كانت تمضى فى طريقها صامته وكأنها فى نفس الوقت تشدهم بهذا الصمت خلفها طوال الطريق الصعب، وكانوا جميعا يشعرون أن عندهم بعض الحق، ففى كل زيارة كانوا يعرضون عليها فكرة الركوب وترفض، كان الواحد منهم يجهز حمارته ويأتى بها أمام دار الناعسة رغم وعيه المسبق من احتمال عودتها إلى داره دون استخدام، أكثر من ركوبة يربطها أصحابها فى حديد النوافذ أو جذوع شجر

الكافور أو أى وتد مدقوق جنب جدار، لكنها كانت ترفض وتؤكد لهم أنها مازالت تستطيع الذهاب مشيا فتحرمهم فى نفس الوقت من حق الركوب، ومع ذلك يجاهد كل منهم أن يؤكد لها أنه جهز ركوبته من أجلها، كانت تصدق رغم إدراكها وإدراكهم استحالة ركوبها كل هذه الحمير المربوطة فى انتظارها، كان البعض منهم ينسلت فى غفلة، تسأل هى عنه فلا تجده، كانوا فى كل الحالات يؤكدون بعد الزيارة أنهم أبرءوا ذممهم من ذنبها، وعلى امتداد تلك السنوات التى زارت فى كل مواسمها قبره والتى زادت بحسابات الكبار من رجال الكفر وحريمه عن الخمسين عاماً دون أن تخلف موعداً، كانت تأتى قبل ميعاد «الطلوع» مهما كانت قسوة الجو حراً لا يحتمل أو برداً لا فحاً أو مطراً يحول السكة الزراعية ودروب الكفر وطريق المدافن إلى وحل خالص دون «مسارب» أو مدقات ، أحيانا كان أحد أبنائها الأساتذة يوصلها بنفسه إلى دار الناعسة أو يكلف أحد أحفادها بتوصيلها وأحيانا كانت تأتى وحيدة، تدخل دار الناعسة وتجلس، ربما تطلب شايا أو فطورا، وسرعان ما يحوطها البعض من حريم العائلة وبناتها وكبار السن من رجالها، تجرى الناعسة فى جنبات الدار بغبطة فتبدو للجمع الملوم كما لو كانت

تريد أن تقدم لها ولهم كل خزين الدار أو أكثر مما تطوله وتملكه، تدعوهم ست الدار بحماس المطمئن لمشاركتها الفطور فيستجيب البعض ويعتذر البعض، لكنه فى كل الحالات يكون هناك زحام حول طبلية الناعسة التى ترمح هنا وهناك، تحمل صحنا أو مسندا أو تفرش حصيرا آخر لتوسع الحيز المفروش فى المندرة بينما الأفواه تمضغ والناعسة تطل وتبدى استعدادها لتنفيذ أى إشارة، تكون مشاغبات وذكريات ومناوشات بين الجميع، وست الدار تنظر إلى الكل بسماحه الوجه الطرى الذى غزته التجاعيد بكثرة فأكسبته هيبة الجدات، تصب الناعسة أكواب الشاى من البراد الكبير بعد أن ترفع الطبلية، يشربون ويستعيد كبار السن منهم بعض الحكايات القديمة فتتذكر هى وتهز رأسها قبل أن تشارك بعقل واع وعينين صاحيتين، ربما تزيد للحكاية أطرافا، ربما تصححها أو تعيد روايتها فيستمعون وقد ارتسمت على الوجوه غبطة افتقدوها فى أيامهم الأخيرة، ربما لأنها تكون دائما بارعة فى استدعاء الزمن القديم الذى عاشته مع الآباء والأجداد، وربما لأن وجودها بينهم كان يعنى دعوتهم لتأدية واجب تناساه البعض منهم نحو من سبقوهم فى زحمة الأيام وخلف فى الصدور نوعا من الأسى، ما كان

يحيرهم من أمرها هو إصرارها على الذهاب مشيا على الأقدام، وكثيرا ما كان البعض من كبار السن ينسلت او يتعلل بشتى الحجج للإنفلات من «طخ المشوار» مشيا حيث لا يليق أن يركب الواحد منهم وست الدار أمامهم تسعى على قدمين، كان البعض منهم يلتقى مصادفة مع أحد أبنائها أو أحفادها فى البندر ويحدثه مبديا غضبته المسامحة سلفاً بسبب رفضها الركوبة التى أعدها خصيصا لها:

– جهزت لها الركوبة بنفسى يا أستاذ، حطيت عليها البردعة الجديده، الشمس كانت قايده نار والمشوار طويل، وانت عارف، الترب محدوفه بعيد عن البلد، ودى عضمه كبيره يا أستاذ، يرضيك ترجعنى بالحماره ؟ يرضيك ؟

– ح نعمل معاها إيه بس؟ ع العموم معلهش، إنت تزعل نهار ما تركب ركوبة حد غيرك، إنما كده يبقى الغلط مردود

– ما قلناش فيها غلط ولا حاجه، بس إحنا بنخاف عليها برضه، طيب تصدق بايه ؟ خالى المرسى رجع من نص السكه، كان مخزى وهو راجع، ونهار الشتا اللى كان مغرق الدنيا أبويا إبراهيم وأبويا حسين ما طلعوش الترب خالص، بقى هو يعنى حد منهم كان ح يرضى يروح راكب والست الكبيره ماشيه ؟

النفر مش عارف يقول إيه .

– معلش وكتر الف خيرك .

على هذا النحو كانت مثل هذه اللقاءات تنتهى، مجرد شكايات هادئة وتهدئة خواطر عاجزة عن الوعد بالوصول إلى حل، كان الأبناء والأحفاد يعرفون ويسمعون، وأحيانا كانوا يتحاورون ويكتشفون أن ما تفعله ست الدار سوف يبقى ما بقيت هى قادرة على الحركة وبنفس الطريقة، كانت تعلن لهم قبل مواسم الزيارات التى تجهز نفسها للقيام بها، تبعث للناعسة تكاليف الرحمة قبلها بأيام، تحرص على تجهيز ثوب جديد أو مداس جديد، كأنها طفل يرتب ثياب العيد ويتعجل طلوع النهار، كان أولادها وأحفادها يتبادلون الابتسامات والتعقيبات المرحة قبل أن تذهب إلى الكفر لتأدية الواجب كما تقول، وأحيانا كانوا يتآمرون عليها تلك المؤامرات الصغيرة، تجد أمامها فى وقت واحد أكثر من ثوب جديد وقميص جديد وغطاء رأس جديد وقد قدموها لها فى لفافات، تفضها بينما يتبادلون النظرات، تبدو لهم وقد تحيرت فى أمرها قبل أن ترتبهم أكواما وتحدث نفسها أكثر مما تحدثهم :

– دول لطلعة رجب، ودول لنص شعبان، والشبشب ده مع

* * *

– نورتى بيتك يا خاله

كانت الناعسة تقولها فى كل لقاء، تتبادل معها قبلات الشوق وتحمل عنها ما قد يكون بين يديها محمولا، تفرد الحصير وتضع مسند الكنبة خلف ظهرها، تعمل على راحتها وتتأكد من ذلك، يصبح دخول ست الدار عندها عيدا أو ما يشبه العيد، كانت الوحيدة فى الكفر التى كانت تناديها «يا خالة»، حتى من هم فى مراكز أبناء وبنات الأخوات أو الأخوة كانوا ينادونها مثل الكل بأسماء أخرى (ست الستات – ست الكل – أم الأساتذة – أم الهوانم – الست الكبيرة – أو ست الدار) كانت علاقتها بالناعسة تختلف عن بقية أهل الكفر، أقارب وأغراب، كانت الناعسة من نفس العائلة لكنها لم تكن ابنة أخ أو أخت، لم تكن حتى ابنة لعم العم أو خال الخال، لكنها من نفس الصنف، من أصلاب نفس الرجال جاءت وان لم تفكر ست الدار يوما أن تحدد درجة قرابتها معها، شأنها شأن الكثار من ناس الكفر الذين يعرفونها ويظهرون لها تباعا فى كل زيارة، تتعامل معهم بنفس الود دون أن تفكر مرة فى أن تسأل أيهم عن والده أو

والدته أو اسم عائلته ما لم يتطوع هو بذكر مثل هذه المعلومات، كأنما كان للكل حقا متساويا فى التعامل معها بغض النظر عن درجات القرابة أو المعرفة، اما ست الدار فقد وجدتها ذات صباح أمام باب دارها، صبية جسورة النظرات إنما بأدب، لحظتها فكرت بينما تتأمل ملامح الناعسة «لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، بطولها وسط فروع عائلة متشابكة الأطراف «طلبت منها ست الدار أن تدخل فدخلت، طلبت منها البقاء فاستجابت، لم يحدث بينهما اتفاق على الاستمرار لكنها استمرت وعاشت فى الدار لسنوات لم تحسبها، كانت تعامل الناعسة فى بعض الأحيان وكأنها واحدة من بناتها الكبار التى بكرت بهن قبل خلفة الصبيان، أحيانا كانت تقربها منها كما لو كانت أختها رغم فارق السن بينهما، تبثها شكايات العمر الصغيرة والكبيرة باطمئنان من وجدت فى عقل الناعسة وقلبها بئر الكتمان الغويط، كانت الناعسة دائما حولها ومعها ولها، تغسل وتطبخ وتطحن تعجن وتخبز دون تكليف، تحلب وتذبح وتبيع فائض المعاش دون أن تستشير أحدا فى بعض الأحيان، كانت تأمر وتنهى فى طول الدار وعرضها وفى وجود ست الدار، حتى الرجل الكبير كان يسألها هى عن المطلوب قبل أن يغادر الدار

فى طريقه للعمل فى البندر، وعندما يعود كان يناديها ويناولها المطلوب، قطعية لحم أو قمع سكر أو مقطع قماش لازم لكسوة العيال، كان الرجل قد أدرك أن الناعسة حصلت على توكيل بالصمت من ست الدار لتتولى هى عمل كل شىء، كانت ست الدار مشغولة بخلفة الصبيان وتربيتهم فى تلك السنوات، وكانت تهمس للناعسة فى السر والعلن :

– أصل انتى يا ناعسة وش الخير .

– يجبر بخاطرك يا خاله .

تقولها وقد أطرقت فى خجل أو أسبلت عينيها العسليتين برموشهما الطويلة فبدت مثل واحدة من بنات ست الدار، أيامها كان الكل يقول أن الناعسة دخلت الدار وجلبت السعد لأهلها، كان الرجل الكبير ينعم بإحساسه بفرحة أنه صار أبا لخلفة من الصبيان بعد زمان طال وطال، ربما كان فى الستين من عمره عندما وضعت له ست الدار أول مولود ذكر، وربما كانت بعض بناته من الحريم القدامى قد صرن فى ذلك الوقت جدات، كانت أحواله قد تغيرت وجعل ينفرد بنفسه فى الأركان يفكر، وست الدار ترقب فرحته التى كانت تبدو لها فى تلك الابتسامات الشاردة المشغولة، وعندما سألته ست الدار عن سر شروده

وعزلته رد عليها وعلى نفسه أكثر وبصوت هامس :

– العيال دى ح تكبر، ويلزمها علام، الخلق ما بترحمش، يبقى الحل إيه ؟

– إيه ف إيه ؟

سألته فالتفت إليها وكأنما فوجىء بوجودها وسمح لها بأن تجلس أمامه وهى تحمل الولد الثالث على صدرها، مد يده ومسح على رأسه بحنو وسألها :

– يا ترى ح أعيش لحد ما يكبر ويعرف عدوه من حبيبه ؟

– يديك طولة العمر

– الولاد جايين بعد شوقه كبيره يا ست الدار، وانتى لسه صغيره ولا تعرفيش، أنا باقول نبنى لنا دار ف البندر ونعيش هناك، ما هو لازم ح يروحوا مدارس ونطلعهم دكاتره ومهندسين، ح نربيهم أحسنها تربيه، يبقى لازم نخفيهم عن عينين الخلق اللى ما عندهاش، العين يا ست الدار فلقت الحجر نصين، والحسد مذكور ف ألقرآن .

يومها لم تملك أن تعلق على كلامه بشىء، كان قد انتفض واقفا وجعل يخبط قماش جلبابه بيده اليمنى بينما اليسرى قد أمسكت ذيل الجلباب ولفته ليظهر أمام عينيه وعينيها آثار

جلسته على حجر الطاحونه الكبير من رماد وقش يتساقط من إثر خبطاته وخبطاتها، تنهدت وقامت، دارت حول نفسها بالولد، هكذا اعتادت منه واعتاد منها، يقول وتسمع وربما لا ترد ويكون مجرد سماعها اشتراك فى الفكرة وموافقة عليها تستوجب الاستعداد لتنفيذها وربما لم يطل الوقت لأنه جاءها بعد أيام ليخبرها بأن الدار الجديدة التى بناها بجوار مدرسة البندر قد اكتملت تماما وأنه عليها أن تجهز نفسها والأولاد للانتقال للعيش هناك :

– ح أرتاح م المشوار كل يوم والتانى، وتبقى الناعسه تفضيكى من سوق الخميس

* * *

– الدار اللى ف الكفر دى مش ح تتباع للشيخ فرج، والبنات الكبار ما ياخدوش فيها كمان، لو اتقسمت ما بينهم مش ح تبقى دارى اللى أبويا كان بيرمح فيها بالحصان وأنا راكب قصاده، لكن الدار دى كمان لازم تفضل عمرانه، ما يسكنهاش الواغش، يبقى الحل ايه ؟

– إيه ف إيه ؟

نظر اليها وأكمل على طريقته :

– هى الناعسه دى مش مصيرها تتجوز ؟

– مصيرها

– خلاص .. نكتب لها الدار، وح نشرط عليها شرط، وحتى من غير شرط، ماهو بعد ربنا ما يتولانى ح تزورينى يا ست الدار، تبقى تطلعى عليا من هناك، واوعاكى يهل عيد ولا أشوفكيش، واياك موسم يعدى عليكى وتكسلى ما تروحيش .. أزعل خالص .. صحيح مشوار الترب بعيد لكن ما فيش مهرب، النفر يندفن ف تراب الكفر وسط عضم الجدود

– يديك طولة العمر

بذلك ردت عليه يومها وقد وقف على عادته ينفض مقعدة جلبابه من إثر جلسته على درجة السلم، وعندما خرج فكرت ثم كفت عن التفكير، وربما لا تذكر إن كان العمر قد امتد به قليلا أو كثيرا، كل ما تذكره أن الناعسة تزوجت فى وجوده ودخلت فى نفس الدار، وان الولدين التوأمين كانا يخطوان خطواتهما الأولى يوم حل أجل الرجل الكبير، وأنها عملت بالوصية ولم تخلف موعدا، كانت تطلع لزيارته فى كل المواسم، من داره التى سكنتها الناعسة كانت تخرج والى نفس الدار كانت تعود، والناعسة التى خلفت وزوجت خلفتها وصارت بحسب نداء

الصبية والبنات جدة، هى الناعسة التى رأتها ذات صباح أمام باب الدار ودعتها للدخول فلم تمانع، هى نفس الناعسة مفتوحة الصدر والقلب والمشاعر، تقابلها بنفس الحماس والحيوية، تحوطها بالحب وتهمس :

– نورتى بيتك يا خاله، اطلعى ارتاحى ف مقعدك يا ست الستات، وسط دارك زى ما هو نضيف يا خاله، وخطوتك فيه بركه وخير

* * *

تسبق خطوات الشيخ حسنين النعسان نحنحاته، يتهامسون بوصوله قبل أن يدخل الدار، تتساند هى على كتف صبى أو صبية وتلبس مداسها الذى تتطوع بتقريبه من قدميها أى يد، يدخل الشيخ حسنين بنفس الطريقة التى كان يدخل بها عمه الشيخ خضر النعسان، يبسمل ويحوقل قبل أن يلتفت إليها ويهمس متوددا :

– تعيشى وتفتكرى يا ست الكل

– اسبقنى يا شيخ حسنين

– حاضر

يقولها وقد ازداد اقترابا منها وجهز نفسه لاستقبال راحتها

المضمومة على النقدية تغمزه بها غمزا يتوقعه ويحسن التلقى، تندس يده فى جيب صداره وهو يدمدم شاكرا :

– ولزومه إيه بس يا ست هانم، دا المرحوم كان يبقى خال أبويا لزم

يقولها بزهو خاص وهو يستدير خارجا، ربما يلحظ البعض أنه عاود تحسس ما حطه فى جيب صداره وهو على بعد خطوات من باب الدار، وربما يؤكد البعض للبعض الآخر همسا أن الشيخ حسنين عرف قيمة المبلغ فتنشط أو تباطأت خطواته بحسب الحالة، لكنه فى كل المرات كان يذهب

تخرج ست الدار وخلفها الناعسة وبعض نساء العائلة وبناتها وربما بعض الكبار من رجالها الذين لا يرتاحون للمشى مع الشباب فارغ العقل أو الرجال الكسالى، تنظر هى إلى الحمير المربوطة فى حديد النوافذ والأوتاد وجذوع شجر الكافور، تمصمص الشفاه عجبا ثم تنظر إلى الوجوه لائمة وشاكره فى نفس الوقت وتهمس :

– وتاعبين روحكم ليه بس يا ولاد ؟ دى كل خطوه بحسنه يدمدمون ويغمغمون ويحتجون لإصرارها على الذهاب مشيا فى كل مرة بينما هم مستسلمون، يتابع البعض خطواتها التى

تقـودهـم من أقـصـر طريق فى« دروب الكفـر إلى سكة المدافن، يؤكد من يراها طالعة أنها تشتد ويقوى عزمها لدرجة أن الذين يشاركونها المشوار يعجزون أحيانا عن مسايرتها أو اللحاق بها فيـتابعـونها عن قـرب أو بعد بـحسب الطاقـة والعزم، لكنهم فى أغلب الحالات يتبادلون الحوار عنها :

– لا ومتكحله ومتحففه وعلى سنجة عشره

– اللى يشوف وشـها ولا يعرفهاش يقول حاطه أحمر وابيض

– وبتدب ع الأرض زى العون

– أصل دى لحـقت جوز الحـمـام بتـلاته أبيض ورطل السـمن بقرش ونكله، كانت الخلق اياميها عايشه بلاش

– ما هـى عايشه لحد النهارده وبكره ف عز ما حدش شافه

– البركه ف ولادها الأساتذه

– وهو الراجل فايت لها شويه ؟

– ح ينقطع نفسنا النهارده

– إرجع إن كنت عايز ترجع، وما تكسرش مقاديفنا

على هـذا النحـو لا يكفـون عن الرغى طوال الطريق، ربما يتأكد للبعض منهم أنها تسمع كل ما يقال ولا ترد، وقد اعتادوا منهـا طوال طريق المدافن ألا تتكلم أو ترد على سـؤال، حـتى

عندما يقابلهم الشيخ حسنين النعسان عائدا ويقول لها بصوته الخشن وكأنه يبرئ لها ذمته ويطلب منها الإذن :

– رحت وقريت واستغفرت ووزعت اللى فيه القسمه ع العيال والفقها

لا ترد، ربما لا تكلف نفسها عناء الالتفات إليه فيمضى فى طريقه وهو يبرطم أو يتحاور مع من يلهثون فى إثرها على عجل، وعندما تصل ست الدار الى قبر الرجل ترفع جلبابها الأسود الى ما فوق المقعدة، يظهر جلبابها الملون الذى تجلس عليه وقد كومت ما فاض من جلبابها الأسود فى حجرها الملون، تحط كفها على الرخامة التى تحمل أسمه وتاريخ ميلاده ووفاته بالشهرين العربى والأفرنجى، تمسح هى براحتها المفرودة سطح الرخامة بحنو فينزاح ما قد يكون علق بها من رماد، يظهر الاسم جليا وواضحا، تخلع مداسها بيدها اليسرى وتركنه ثم تتربع فى جلستها، تحط دماغها على جدار القبر، الذين يتابعونها يسمعونها تهمس بكلام وتحكى حكايات، ودائما تحكى بصوتها المهموس الذى لا يسمح لأحد بسماعه أو تفسيره، حتى فى المرات التى كانوا يحيطونها من كل جانب ويتصنتون لم يتمكنوا أبدا من سماع عبارة كاملة أو لملمة معنى محدد يمكن

أن يصير محورا لحديث بينهم بعد ذلك، كانت زياراتها اليه تطول فيتباعدون رجالا وحريما كل الى قبر أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوج أو أى عزيز لديه مات، يتناثرون نقاطا عند أبواب القبور ويترحمون، وربما يبكى البعض منهم قبل أن يعود مع من عادوا يحومون حولها من بعيد أو قريب فيجدونها على نفس الحال الذى كانت عليه، يختارون ركنا غير قريب منها وينتظرون حتى لا يقطعوا عليها الزيارة، تظل مكانها ولا يبدو عليها أنها شعرت بهم وقت الذهاب أو العودة، مسنودة برأسها المعصوب على جدار القبر تحكى وأناملها تربت على أجزاء اللافتة الرخامية برقة ولطف، كأنها يد أم مدربة حنون تتحرك على بدن طفل لها يغط فى نوم هانئ عميق، ناعمة وهادئة تنهى طقوس الزيارة قبل أن تتلفت حولها يمينا ثم يسارا كما لو كانت فى صلاة وسلمت على الملائكة مودعة، لحظتها يتوقعون النداء المألوف :

– يا ولاد

يسعون ناحيتها بخفة فتتساند على أقرب من تطوله يديها وهى تقف، تلبس مداسها وتنفض جلبابها الملون وينسدل ثوبها الأسود عليه، تخطو على مهل بعد أن تلقى على باب القبر نظرة

مودعة، يتحركون أمامها وحولها ويسود صمت لا يسمع خلاله غير دبيب الأقدام الزاحفة وهى تخرج من دائرة المدافن إلى الطريق الترابى، ربما عند ساقية سيد ابن «المغدور» أو سبيل شريفة بنت «الخفيفة» تجرؤ واحدة أو واحد على طرح سؤال تتلوه أسئلة

– كنتى بتقوليله إيه يا ست الستات ؟

– أهو كلام .... اللى ف القلب

– هو بيسمع يا ست الكل ؟

– بيسمع ويرد كمان

– وهو انتى لا سمح الله ناقصك حاجه ؟

– اللى ناقصنى بحكى له عليه

– بس إحنا بنسمعك تتكلمى ولا حدش بيعرف يفسر كلامك، هو انتى بتقوليله إيه يا أم الهوانم ؟

– حاجات بينى وبينه

– لحد دلوقت ؟ بقى فيه حاجات بينك وبينه لحد دى الوقت ؟ إزاى ؟ ألف رحمه ونور تنزل عليه

يزدادون جرأة وهو تجاريهم بسماحة فتتنوع أسئلتهم وأجوبتها ولا يشعرون بطول الطريق حتى يصلوا إلى دار

الناعسة وتجلس هى محاطة بهم، يتحدثون عن بعض ما سمعوه وكان بينها وبينه فتستعيد هى الزمان والأحداث وتحكى بحيوية وصحو وهم يتسمعون فى شغف ودهشة، وربما يعلق بعض كبار السن منهم كاشفا للباقين كيف أن الزمان اختلف، لا تمل هى الحديث عنه ولا يشبعون، ودائما كانت تحكى لهم حكاية أو حكايات حصلت بينها وبينه فى الزمن القديم تستدعى ضحكاتهم فيضحكون حتى تدمع بعض العيون من كثرة الضحكات، ربما يشعر الكثير منهم بنشوة غامضة رغم المشوار الطويل والتعب، وربما تتمدد بطولها فوق الحصير فينسلون واحدا إثر الآخر من المكان ويتركونها ساعة القيلولة لترتاح، وربما يتواعدون على قضاء السهرة فى دار النّاعسة حول ست الدار وحكاياتها التى لا تنتهى عن الرجل الكبير وزمانه الخصب الذى يعشقون استعادته حنينا يرضيها رغم أنه فات وانقضى وخلف الجديد.

مجلة إبداع مايو ١٩٨٩

عرق الصبا الصاحى

بينى وبينكم أنا يومها إنخرست، نزل على سهم الله وما عرفت أن أرد عليه، كان من الممكن أن أكذبه أمام الناس وهو الكذاب، وكان من الممكن لو حاولت أن يصدقنى الناس، عملت بأصلى وسكت، وربما قلت لنفسى ساعتها أن الكذب المسبوك المزوق فى كفرنا يستطيع أن يخرس الصدق العريان، ربما خفت أن يعرينى أمامهم أكثر من عرى ثيابى القديمة التى كنت أتستر بها وأخجل منها فى نفس الوقت .

شكوت حالى لواحد من أكابر الناحية فتفكر فى الأمر لحظات قبل أن يقول لى وهو يضحك ضحكة عالية شمتانة :

– أهو أخوك ف الرضاعه يا حسنين والداخل بينكم خارج، إنما إسمع.. إيه رأيك لو رشحت نفسك قصاده؟ رشح نفسك قصاده وإحنا نقف وراك .

كانت أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام، هززت رأسى عدة هزات وكأننى أنفض من الأذنين أثر الكلام مخافة أن ينفذ من

خلالهما إلى الدماغ ويتحول إلى فكرة قابلة للتنفيذ، وساعتها يقول الناس أن المدندش إنخبط فى دماغه وعمل مالم يعمله أكابر الناحية الذين يكرهون سلمان ويخافونه فى نفس الوقت لأنه أشاع فى كل الناحية أنه مسنود من الحكومة والحزب ومن السادات نفسه، كان يتباهى أمام الكل بصوره المنشورة فى صفحات الجرائد والمجلات، وكان يعد الناس بالممكن والمستحيل :

– ح أنور لكم داير الناحيه كله وح أدخل التليفونات فى البيوت، وأعمل مركز بحوث زراعيه وأزود المحصول، بدل الفدان ما يجيب تسع قناطير قطن ح يرمى عشرين وخمسه وعشرين، والقمح بدل مايدى عشره وخمستاشر أردب ح يجيب تلاتين وأربعين، ح نعمل مخبز آلى ومزرعه سمكيه ونزرع ف البلد تفاح أمريكانى وجوز هند بدل الجميز والتوت .

وكانوا يصفقون للمرشح الوحيد فى كل الدائرة والذى سوف يفوز بالتزكية مالم يحدث مالا يتوقعه أحد ويتقدم أى واحد معمول حسابه لترشيح نفسه قبل أن ينتهى الميعاد بعد أيام، ما كان يغيظنى أنه استخدم اسمى ليكسب: أصوات الفقراء، وما كان يغيظنى أكثر أن صوته كان يختلج وعيناه تدمعان وهو يتحدث عنى وعن أمى وعن نفسه :

– أهو ده حسنين ابن أم حسنين، أخويا ف الرضاعه يا ناس، لولا الست والدته لا كنت عشت ولا إنكتب لى عمر، بس شوفوا عامل ف نفسه إيه؟ لابس مبهدل، قصده يحرجنى ويقلل قيمتى، ماهو محسوب على أخ أنسئل عنه، طيب، أنا با أفتح لك صدرى يا حسنين وبا أمد إيدى، أطلب وشوف ح أنفذ طلباتك ولا لأ؟ .. ساكت ليه يا حسنين؟ شاهدين يا ناس؟ شاهدين يا ناس ؟

أوشك أن أنطق لأكذبه وأكشف حيلته لكننى أسكت، أمنع نفسى من البوح ببعض ما أعرفه عنه وأداريه، لكنه عندما يفيض الكيل آكل فى نفسى وأفكر فى الحل، صحيح أننى لا أملك فى زمام الكفر وكل الناحية ما أخاف عليه من الضياع، وصحيح أننى معدود فى صف الفقراء رغم لسانى الطويل وعقلى الناصح، لكن هل يحق لى أن أرضى لنفسى أن أتحول إلى سن حربة يتلاعب بها الأكابر ضد سلمان؟ هل ألعب هذه اللعبة الرخيصة وأرشح نفسى ضد سلمان فأتحول إلى مسخة بين أصابع الأكابر وأنا الطبال الزمار الحاوى القادر على ملاعبتهم وتفريج الناس عليهم، وصحيح أننى مجرد نفر غلبان يجيد الردح والندب مثلما يجيد إقامة الأفراح والليالى الملاح إذا لزم الأمر، لكننى أبدا أبدا لا أرضى لنفسى أن أدخل مع سلمان شلبى فى صراع على شىء، وهل تساوى رأسه اللامعة القادرة على

خداع الناس وتزييف الحقائق الثابتة ولعب البيضة والحجر مع رأسي؟ وأنا الغلبان الزاهد في الدنيا؟ ربما تكون كل هذه الأفكار قد طافت في خيالي وأنا في حجرة الكبير الجالس قبالتي يتأملني بهدوء بعد أن شبع ضحكا، تنحنح لينبهني قبل أن يقول بجد

– لك حق وشك ينزرد ويزرق يا مدندش، إنت غلبان صحيح بس نضيف، إنما ده .. ده تعبان شراقي لسانه بيبخ سم ناقع فين ما يفوت .

ولابد أن كلام الرجل الكبير وصل إلى قلبي ومسه مسا خفيفا، ذلك أنني شعرت بسخونة دمعتين تسقطان على غير إرادة مني وأنا الذي نادرا ما كنت أبكي، حتى وأنا أندب للنسوان كنت أندب دون بكاء، وكانوا يقولونها لي بعد دفن الميت وأوافقهم، ولابد أنني في تلك اللحظات كنت أبكي على حالي دون أن أنتبه لروحي، ربت الرجل الكبير على ظهري يواسيني ويحاول أن ينسيني ما كنت أفكر فيه قائلا :

– إحنا ح نوقف قصاده واحد عبره، واحد مالوش قيمه خالص ف كل الناحيه، إن كسب سلمان تبقى مسخره وحش وسط ما تترفعلوش من بعدها رأس ولا يطلع له حس، وإن سلمان كسبه ح تبقى مرمطه وقلة قيمه، إنت عارف مين أوطى واحد في الناحيه يا

مدندش ؟

– مين ؟

– ح أقول لك بعد ما نقدم له طلب ترشيخ

لم يقل لى وفاتنى أفكر حتى سمعت ورأيت مالم يخطر على بالى أو يرد فى خيالى حتى فى الأحلام، رأيت واندهشت مثلما اندهش ناس كفرنا وناس الكفور المجاورة فى نواحى الناحية، ومن لايندهش إذا كان الوحيد الوحيد الذى استخدم حقه فى الترشيح ضد سلمان هو شحيبر ابن الكلاف؟ شحيبر الذى كانوا يقولون عنه «بتاع» الأرض والذى طول قامته ثلاثة أشبار دون زيادة بمقاس شبر سعيد الكمونى، ثلاثة أشبار بالفعل دون مبالغة، وفى حالة المبالغة نقول «شبر ونصف»، طبعا شحيبر لم يفعلها من تلقاء نفسه ولا كانت فاتت على خياله فى الأحلام، ولابد أنهم أقنعوه وناولوه مالم يكن يحلم بأن يناله قبل أن يذهب وفى آخر يوم وآخر ساعة لقبول طلبات الترشيح بعد أن قال الكل أنها طابت لسلمان بالتزكية، قلت لروحى وأنا أراه فى البندر مزفوفا ومحمولا على الاعناق ومن أمامه طبال وزمار وغازية من سنباط ترن صاجاتها وتطلب النقوط للرجل الغلبان الذى رشح نفسه باسم الفقراء ومن أجل الفقراء، قلت لنفسى بينى وبين نفسى «كان من الممكن أن أكون مكانه» ولابد أن الخبر طار فى كل

أنحاء الناحية مثل السبرتو أو البنزين .

أكثرية الناس ما لم يكن كلهم فى ناحيتنا عرفوا شحيبر، كل من سافر بالقطار إلى طنطا أو شبين رأى شحيبر، كل التجار والأفندية والمزارعين شافوا شحيبر ابن الكلاف، دكك المحطة أخذت من بدنه وعلمت عليه، من فى كل الناحية لم يعرف شحيبر؟ كان أكثر شهرة من شاى الشيخ الشريب أيامها، كان يجلس من أول طلوع شمس ربنا وحتى قطار الحادية عشر والنصف مساء، يجلس على نفس الدكة أو يبدلها إذا أراد، يجلس وينتظر وصول أى قطار من أى الاتجاهين فيتدحرج على رصيف المحطة حتى يصل إلى أحد أبواب القطار، يمد يده إلى أى شىء تطوله ، سلة أو قفص أو قفة أو طفل، حقيبة أو خرج، يطلب السماح من صاحب الشىء ثم يلفعه على كتفه أو ظهره ويرمح، يبدو لكل من يراه مثل «حرامى الحلة» الحامل ما يداريه، لقمة كبيرة أو خنفساء أو صرصار ، يحمل الحمل ويجرى فلا تظهر منه غير ساقين قصيرتين متسارعتين فى اتجاه باب المحطة، ودائما دائما ما كان يجبر صاحب الثقل المحمول على الجرى فى أعقابه أو استمهاله بعض الوقت حتى يلحق به، لكنه مع النساء كان يتأنى ويتبختر على مهل فتسبقه المرأة وتستعجله ولا يتعجل أبداً، دماغه لا يلين أبداً وكأنه بغل إسترالى، يحدد أجره ولا يتنازل عنه

أبدا ولو حصلت نصيبة أو قامت بينه وبين أى إنسان خناقة، حركته خفيفة ولسانه ثقيل فى الكلام، وعزمه على الحمل أكبر بكثير كثير عن مظهره، فكم شهدوا له بحمل ثقل يعجز عن تحريكه رجل بشوارب أو رجلان فى بعض الأحيان، وكانوا يسخرون ويقولون تبريرا لتفوقه عليهم :

– هو شال حاجة ؟ دا منه للأرض

– لأ ورجليه زى عجل الونش عارفه سكتها

– سبحان الله

وحكايات شحيبر وأى شحيبر مع الناس فوق رصيف السكة الحديد أو شوارع البندر تحتاج إلى شاعر ربابة، هى حكايات بسيطة تليق بأى شخص بسيط، تراه سهلا وبلا قيمة فى أول الأمر ثم تقترب منه وتتعامل معه فيظهر لك شخصا آخر، شخصا غويطا ومشحونا بوعى غير محسوب حسابه، وهل كان سلمان أو أى واحد من رجاله يفكر أن شيالا قصيرا مقطوعا وساكنا على رصيف محطة بندر فى ناحية تبدو منسية سوف يفعل ما فعل لمجرد أن بعض الأكابر فتحوا له الأبواب وقالوا له : «قدم اسمك ورشح نفسك ضد سلمان» ففعل وكبرت فى دماغه ولم يتنازل أبدا، رغم أنه عاش كل سنوات عمره مسكينا بين المساكين يسعى من أجل اللقمة له ولعياله،

والثوب يستر به بدنه وأبدانهم، صحيح أن شحيبر بحسابات الكل كان يملك عرق الصبا، لكن ما فائدة عرق الصبا لشيال أكثر من مساعدته على حمل ما يحتاج إلى حمله أصحاب الحاجات؟ وهل كان عرق الصبا يقدر أن يعينه مثلا على إزاحة هموم حياته أو إبعادها عنه؟ لقد ظل عرق صباه عطلانا وقاعدا على دكة رصيف المحطة حتى استنهضه بعض الأكابر الخبثاء بغرض الضحك عليه وعلى سلمان، فاستقام عوده وبدا للناس أنه أطول مما كانوا يحسبون، وكانت قدرته على السعي في الكفور والنواحي لضمان أصوات الناخبين أكبر من قدرات سلمان بكثير، وسبحانه الواهب القهار الذى ألهم من فكر في الأمر قبل غيره ليساعد شحيبر على الوقوف .

فى كفرنا «السوقى» حسب الناس أن المسألة نكتة فى أول الأمر، مجرد نكتة علاجها بسيط، دعوة من حضرة جناب العمدة الذى هو ولى أمر شحيبر مثلما هو ولى أمر كل ناس الكفر الذى ولد فيه شحيبر، ثم بعض كلمات من اللوم أو التهديد والوعيد أو الاستهجان لأننا فى النهاية أولاد نفس الكفر ولا يليق بنا أن، نقف ضد بعضنا ونضحك علينا الغرباء، وقد فعل حضرة جناب العمدة ذلك بالطبع عدة مرات، لكن شحيبر كان قد تبدل، كبرت دماغه وما عاد يخاف التهديد أو الوعيد، وكانت الأيام تمر وآخر موعد للتنازل يقترب والولد

يعاند أكثر من عناد بغل استرالى، جربوا رشوته وزودوا قروش الرشوة أو آلاف جنيهاتها فلم يستجب، على العكس كان يخرج للناس ويبوح بكل ما عرضوه عليه فيكسبهم فى صفه، وكسب شحيبر عطف الناس بسبب عناده وقدرته على مواجهة التهديد بكل شيء ولأبعد حدود التهديد بمثل ما كان قادرا على رفض الوعود والإغراءات التى لو صادفها فى كل عمره السابق لزحف على بطنه لينال عشر معشارها ويحمد المولى عز وعلا، عاند شحيبر بكل عزمه على العناد، وعاند بعزم غيره أيضا ممن كانوا ضد حكومة السادات لأسباب لا نعرفها برغم أن الرجل انحنى أمامنا جميعا أمام صورة عبد الناصر، انحنى ووعد بأن يحافظ على سياسته ويمشى على طريقه ونظامه، لكن هؤلاء كانوا لأسباب تخصهم لايصدقون الرجل، وربما أرادوا إنجاح شحيبر لكى يصبح مثل لقمة خشنة فى حلق كل أعضاء المجلس الكبير بناسه الكبار، وكان هناك أيضاً أولاد الأكابر القدامى الذين يحملون – رغم إلغاء الألقاب – لقب الباشا والبيه، هؤلاء القدامى كرهوا عبد الناصر والسادات ومن قبلهما محمد نجيب، كان تحديد ملكياتهم فى الأرض الزراعية قد أوشك أن يساويهم مع صغار الملاك من أمثال سلمان والناس الشلبى :

كان هؤلاء وهؤلاء يجمعون التبرعات ويقيمون السرادقات ويعلقون

اللافتات باسم محمد شحيبر الكلاف الشهير بشحيبر ورمزه النخلة، يأتى شحيبر وقد لبس الكشمير اللائق وطالت قامته وهو يرفع كلتى يديه بالتحية للناس ردا على التصفيق والهتاف، لم يكن شحيبر يملك القدرة على الكلام أمام الناس فكان يكتفى فى الغالب بالتواجد فى المكان ويتولى من يتحمس له الكلام بدلا منه، فيهز رأسه استحسانا أو يقاطع بعبارة أو عبارتين :

- لأ .. أنا ح أزود المدارس وأعلم عيال الفقرا بلاش

- قول لهم اللحم الفسدان اللى إنباع ف السوق مين اللى جابه ؟

- إزاى بقى ؟ مهما حصل أنا واحد منكم وأقل منكم كمان، أنا لسه يا ناس شيال على محطة السكة الحديد

كان الناس يهتفون باسم شحيبر ويحملونه على أعناقهم يدورون فى شوارع البندر بمكبرات الصوت التى تدعوا الناس لانتخاب النخلة التى هى رمزه، وكانت الحريم فى بعض الأحيان يزغردن، وعند الانصراف كان البعض يقول للبعض أن شحيبر سوف يأخذها من سلمان، ويضيفون أن دوار سلمان المبنى يفوق من حيث الاتساع والتجهيزات كل قصور الأكابر القدامى من البهوات والباشوات فى كل الناحية والنواحى المجاورة، كان من الواضح أن سلمان سوف يخسر بسبب أفعاله وتباعده عن الناس وثروته التى يشك الكل فى

شرعية مصدرها وهو من الناس الشلبى الذين لم يسمع بهم أحد قبل جيلنا بجيل أو جيلين فى أحسن الأحوال، لكن سلمان كان يبعث أنصاره إلى رؤوس العائلات ليدفعوا لهم مئات أو آلاف الجنيهات ليقوموا بتوزيعها على الأفراد ويسألونهم السؤال الذى لا رد عليه :

– بقى معقول إن شحيبر يتكلم باسم عيلتكم ف البرلمان ؟

كان الكبار يطرحون نفس السؤال على بعضهم قبل أن يطرحوه على الصغار ويتحيرون إن كان من الأنسب أن يختاروا المسدس رمز سلمان بديلا عن النخلة الذى كان فى الأصل لعبة أو كذبه مال الناس لأسباب مختلفة لتصديقها، كان البعض يبوح بما يراه والبعض يدارى ويعد باختيار النخلة أو المسدس ليريح نفسه من الجدل، وفى يوم الانتخابات تأخر ناس وجاءت ناس، لكن من تأخروا كانوا أكثر ممن حضروا وسمعنا إشاعات عن تقدم شحيبر فى القرى والنجوع والكفور وتقدم سلمان فى البندر وكفرنا الشلبى، وقال البعض الآخر أن شحيبر تقدم فى كل نجوع الناحية والبندر والقرى البعيدة، وتبادل الفريقان الاتهامات والتهديد بالطعن فى الانتخابات إذا جاءت النتيجة فى غير صالحهم

هل مات سلمان فى جلده كما أكد الكثير من الناس خلال اليومين بليلتين اللتين جرى فيهما فرز الأصوات ؟ ربما، كانت معركته صعبة

وقاسية عليه وعلى أنصاره، لكنه فاز بفارق هزيل هزيل، فارق لايكاد يشعره بأنه نجح بحق ، نجاحه كان أقرب إلى الفشل إذا وضعنا كل الشكوك فى الميزان، ولابد أنه لم يفرح بنجاحه كما كان يحلم ويحلم أهله وناسه، لكنه على كل حال نجح أو انفلت وفتح باب دواره لكل من أراد أن يذهب إليه قبل أن يسافر لعدة أيام لا ندرى لماذا أو إلى أين ، ذهب إلى دواره ناس لتأدية الواجب ولجبر الخواطر أيضاً، كان البعض منهم يذهب ويعود ليقول أنه كان يدارى ضحكته فى عبه أو كمه بحسب ما يسعفه الكلام، وسلمان فى كل الحالات كان يهز رأسه ويردد نفس العبارة :

- كتر خيركم .. كتر خيركم

يزعم البعض أنه كان يقولها شاكرا لمن ساعدوه، ويزعم البعض أنه كان يقولها عتابا أو لوما ناعما لمن أجهدوه وجعلوه يسعى بكل الوسائل المسموحة أو الممنوعة فى الخفاء والعلن ليغطى على من خذلوه وحاربوه وتمنوا أن يضحكوا كل ناس الناحية عليه أكثر مما ضحكوا على ذلك النجاح الهزيل الذى حصل عليه .

ولعل ما هون الأمر على سلمان هو أن شحيبر لم يطعن فى نتيجة الفرز، بل إنه قالها لكل من حرضوه على ذلك بحسم :

- خلاص .. مش ح أطعن ولو انطبقت السما ع الأرض

كان قد ركب دماغه عناد البغل أو كان قد تعب هو الآخر من دخول معركة لا كانت له ولا كان لها، أو ربما فهم الملعوب الذى شارك فيه مدفوعا بأياديهم وربما وهو ما شاع وتردد حصل على المقابل الذى يكفيه ويكفى أولاده، ومن كان يصدق أن شحيبر سوف يمتلك فى أى يوم من الأيام مثل هذا الدكان الكبير الذى انفتح أمام باب المحطة وإنكتب على لافتته بالنيون الملون «شحيبر وأولاده للأحذية والمداسات»

كان يجلس فى عصر كل يوم على مقعده أمام المحل ويمارس لعبته القديمة التى كان قد أبطلها، ففى وسط جمع من الناس كنا نراه ممسكا بين إصبعيه الإبهام والسبابة بقطعة من العملة المعدنية، يحرص أن يريها لكل من يحيطون به ليتأكدوا من سلامتها قبل أن يضغط عليها بإبهامه الخشن فوق سطحها العلوى بينما سطحها السفلى مسنود على ثنية السبابة، يضغط بعزمه فيمسح الكتابة وصورة النسر أو الصقر، يقولون أنه مازال مالكا بين كفيه قوته القديمة، وأن عرق صباه مازال قادرا على إثبات وجوده، مثلما كان فى السابق يفعل بأى عمله فضية يطلب منه صاحبها أن يمسحها فيمسحها ولا تصبح صالحة للصرف بعد أن انطمست الكتابة وصورة الملك.. أى ملك .

سيداتى سادتى ١٩٩٥/٥/٢٥

ابن حلاق الحمير

حسبت نفسى فى دارى واعتزلت الناس، لم أكن أهرب من يوسف ورجاله الأراذل أو أفر منه ومنهم خوفاً من المواجهة وقد صارت العداوة معلنة على رءوس الأشهاد، كان من المحسوب أن تصيبنى ضربة غادرة حتى ولو كانت فى دارى مسكوكة الأبواب والفتحات، وكان من المحسوب فى زمنه أن يحدث أى شىء، حرق أو خنق أو خطف وزرع رعب فى قلب القلب، أكذب عليكم وعلى روحى إذا قلت أننى فى تلك الأيام لم أكن أهتم أو أحرص على استمرار الحياة، وربما لو كان غيرى فى مكانى وفى مثل عمرى يقول لنفسه أنه شبع من الدنيا وعاشها بالطول والعرض، تزوج وخلف للدنيا نسلا يحمل اسمه من البنين والبنات، ورباهم وعلمهم حتى تكونت لكل واحد منهم شخصيته المعدودة المحسوب حسابها وصاروا آباء وأمهات وأعطوا للدنيا خلفة تحمل اسمى فى شهادات الميلاد، ربما.. أقول ربما يتهور ويرمى نفسه فى سكة الخطر بدلا من أن يتحاشاه ويتباعد عنه، ربما ليثبت لنفسه وللناس أنه جسور وقادر على

المواجهة فى الوقت اللائق، ذلك أن الحياة نفسها تتطلب الجسارة والإقدام، لكن المسألة لم تكن بمثل هذه البساطة، شجاعة أو جبن، خوف أو اندفاع، أبيض أو أسود، المسألة أنه لكل كائن حى تاريخ وطباع وفكرة ثابتة عن نفسه وعن الآخر، طيب نتكلم بوضوح أكثر، لو افترضنا أن فارساً مغواراً أختار أن يتعارك فهل يتعارك مع فارس يساويه أم يرمى نفسه وسط مجموعة من الكلاب المسعورة؟ أحسب أن المسألة اتضحت أكثر، وسوف يختار الفارس فارساً ليصارعه، يصرعه أو يسقط فى الساحة مهزوماً بشرف، ولابد أنه سوف يرفض الدخول فى عراك مع الكلاب المسعورة، أعتقد أننى أوضحت كل شىء، ويلزم أن أطمئن إلى وصول رسالتى إليكم على النحو الذى كنت أرجو لها الوصول، بقى أن أذكركم بالناس «الشراودة» الذين اندسوا فى أركان الكفر وصارت لهم أنياب ومخالب، دسوا عيونهم فى الأركان وباتوا مثل الهم الثقيل على قلوب الناس، يوهمونه بأنهم حراسه ورجاله الأوفياء وما هم بأوفياء إلا لذواتهم حتى وأن كانوا يحيطونه بكل هذه الهالة من التوقير الزائف لأغراض تخصهم، وقد يتبدى له أنه يكبر ويعلو شأنه، لكنه علو وارتفاع لحسابهم لأنه يتحول دون أن يدرى إلى ساتر أو ستار يحتمون وراءه ويمارسون الحياة من خلف البعبع المرسوم فى عقول

الناس، يطلقون أياديهم فى أركان الكفر بكل ناسه، وحيواناته وأرضه، وهو مثل خيال «ماتة» زوج لواحدة منهم اسمها «أصيلة» وأن كانت فى الأصل بنت قاطع طريق أو شيخ منسر سابق، فهل كان من الحكمة أن أدفن نفسى وأنا حى أفكر وأحس وأشعر بالخطر الداهم الذى استتب أو كاد أن يستتب؟ هل كان من الحكمة أن أدفن نفسى فى بئرهم الغويط حياً، أم كان الأفضل أن أرتب نفسى وأن أستعد، أستعين بمن يعين من الأهل والأصحاب وأصحاب المصلحة فى بقائى لأشهد بما جرى وما كان من أمرهم وأمره؟ ولابد أن الحياة نفسها تستحق من العقلاء بعض الانتظار والصبر قبل دخول مثل هذه المعارك المتداخلة التى تختلط فيها صفات من يخوضونها بالرغبة أو بالإكره، وطبعا هناك فروق بين من يدخل معركته برغبته ومن يدخلها مكرها أو شبه مغصوب، لكن هناك أيضاً أنواعا أخرى من المعارك، غصب بالإرادة أو إكراه بالرغبة، مثلا لو أن صبيا شاء أن يتعلم العوم فى ترعة وتجاسر ورمى نفسه فى وسط الترعة مثلما كنا نفعل ونحن صغار، سيكون أمامه مهرب وحيد، أن يعوم لينجو من الغرق أو احتمالاته على الأقل، وفى مثل هذه الحالة يكون دخول معركة العوم فى الترعة إكراه بالرغبة أو غصب بالإرادة، طيب لو أن رجلا مثلى شاء أن يحسن الشهادة وتداخلت فى ذاكرته أشياء

وتاهت أشياء وخلط هو بعض الأحداث بقصد كى لايتوه القصد الأصلى من استشهاده، وفى مثل هذه يحدث أن يتوه هو نفسه عن أغراضه البسيطة فى بعض الحالات، فلابد أنه فى مثل هذه الأحوال يكون قد دخل معركته الصعبة غصبا بالإرادة أو إكراها بالرغبة، طيب، وماذا عن مواطن من أواسط الناس يواجه عصابة من مشايخ «المنسر» استولوا على كفر كامل بعمدته الشلبى، هل يقتحم بكل التهور وينتهى أمره برصاصة فى الظهر أو الصدر ليلا فى قلب العتمة أو نهاراً جهارا فى ظهيرة يوم مشمس وهم جاهزون بشهود الزور الذين يعلقون التهم الشنيعة فى أعناق المقتولين؟ يهدر الأوغاد دمه مجاناً وعلى رءوس الأشهاد وقد حملوا على أكتافهم سلاح الجريمة مثلماً فعلوا عشرات المرات والناس ساكتة، والعمدة الشلبى فى حالة دروشة أو غياب غصب بالإرادة أو خاضع لحالة من حالات الإكراه بالرغبة المسبقة ؟

قلت لروحى لأخلص روحى من الهم الثقيل :

– يا ولد .. لقد كان من صار اليوم عمدة كفرنا محسوبا على داركم سابقا فلماذا لا تحاول أن تكون اليوم محسوباً على دواره ؟ ولماذا تركته لهم كل الوقت ولم تلازمه فى الأوقات الحرجة لتحميه من قلة وعيه بهؤلاء الناس ؟

وقلت أيضاً :

– لماذا لا تحاول فى الوقت الضائع أن تعيد الأشياء إلى أصولها الأولى، ولماذا لا تعيد ترتيب الأحداث مرة أخرى بحسب ما تسعفك الذاكرة ؟

وجاوبت نفسى :

– أعرف أن للعمدة الشلبى صلة قرابة من بعيد بناسنا، وأنه لابد أن فرعاً من فروع الشجرة القديمة لأهلى كان قد التقى بفرع من فروع الناس الشلبى، ومادامت البداية كانت بآدم فلابد أنه هناك التقاء بين كل البشر بنسب متفاوتة، ولابد أن علاقتى بالعمدة أوضح وأقرب من علاقته هو نفسه بالناس الشراودة، ولابد أن الدم سوف يحن يوماً حتى وأن طال الانتظار، ومادام هو قد طلع من فرع شجرة قديمة طلعت أنا من فرعها المجاور أو البعيد فلابد من الغوص وراء الجذر المدفوس فى الأرض، صحيح أن الأكفان تقادمت وأن الأبدان تحللت وأن عظام الأموات تفككت، لكنه سبحانه واهب الذاكرة التى تعيد أسماء من رحلوا عن دنيانا بنفس قدرته على إحياء العظام وهى رميم» .

***

فى حكايات جدتى لأبى حكاية عن أصل جدتى لأمى كانت تقولها

لنا ونحن صغار بينما تتلفت حواليها مخافة أن تسمعها أمى أو غيرها من أقارب جدتى لأمى، وربما بسبب ذلك الخوف نفسه كنا نحاول أن نصدقها ولا نستطيع، لكن تكرار الحكاية جعلنا نحفظها ونحتفظ بها دون أن يجرؤ أى واحد منا على البوح بها أو الاستفسار عن مصداقيتها من أحد، كانت حكاية مخبوءة وتوشك أن تكون مدفونة فى الوعى القديم لكنها فرت من ذاكرتى واستقامت رغم تفاصيلها الشاحبة بينما كنت أحاول أن أعيد الأشياء إلى أصولها القديمة، وأحسبها حكاية عارضة وهامشية وبلا وزن إلا بكونها ممدودة فى الجذور القديمة التى اندفنت مثل أصحابها فى التراب .

«كانت جدة جدتى لأم قد ولدت سبع بنات سبحانه الواحد الوهاب مانح الجمال والأرزاق، أعطاهن من الجمال ما يفوق الوصف ويعجز عن وصفه اللسان، لكنه ضيق فى أرزاقهن فصرن فى الدرب مثل عرائس المولد النبوى وقد غطت حلاوتهن أسراب الذباب فتلوث البياض بالفضلات المدورة التى تفرزها وتتركها دوائر سوداء متقاربة تعافها النفس رغم أنها فى الأصل حلوة «ولابد أن الفقر عاندهن فى صباهن مثلما عاندهن فى طفولتهن، كان شباب الكفر يتحدث عن الواحدة منهن زمناً، يتمناها الواحد منهم لنفسه زوجة وقد نضجت وزادت حلاوتها لكنه لايفعل، ربما بحسب رأى البعض بسبب وضاعة

الأصل أو الجهل به، وربما لأن الحسابات كانت تلعب دورها في ذلك الزمن السهل أيضاً، وربما كان عبدالله الشوكى هو أول من امتلك الجسارة ليطلب أكبر البنات لنفسه ويقبل شروط أهلها بأن يأخذها بالجلباب الذى يسترها، أخذها وتوكل على المولى قائلا إن رزقه ورزقها على الله، صحيح أن عبدالله الشوكى كان مجرد نفر «تملى» فى دار مصطفى عوف وأنه كان يحصل علي ثمانية عشر قيراطا من أرض مصطفى عوف يزرعها لنفسه مقابل العمل طوال السنة فى أرض مصطفى عوف أو داره بحسب ما يشاء المالك، لكنه فى كفرنا قاعدة تقول أنه لا يموت فى البلد إنسان بالجوع، كل الناس كانت تتعشى، الغنى والفقير، المالك والمعدم ، صاحب العيال الكثار والمقطوع، وربما كان عبدالله الشوكى هو فاتحة الخير على السبع بنات، ما إن تجرى على ألسنة الشباب حكايات عن واحدة منهن حتى يبعث الله إليها صاحب النصيب يطلبها لنفسه ويوافق على الشرط المعلن بأنه سوف يأخذها لداره بجلبابها الذى يسترها، بعضهم كان يتطوع بإلزام نفسه بالقبول سلفاً قبل أن تقول أم البنت أو يقول أبوها :

- موافق يا جماعة .. ح آخذها بالجلابية اللى عليها.

وانسترت على هذا النحو ست بنات من السبع بنات وبقيت فى

الدار أحلاهن وأصغرهن وأكثرهن جرأة، وكلما دق الباب طالب قرب رفضت بعناد بغلة، كانت تعلن بجسارة أنها لن تسلم شبابها وجمالها لفلاح جلف أو «تمللى» جربان أو نفر أجير، وعندما تسألها أمها عن مصيرها تجاوبها بجرأة :

– ح آخد واحد أفندى بماهية، ويمكن واحد بيه .

تضرب أمها كفاً بكف وتتعجب، وتجادلها وتذكرها بأختها التى تزوجت ابن عم لأمى من دار الخروبى وعندها منه خلفة تفرح، فتعرض عنها وترفض ، تذكرها بعبد الله الشوكى نفسه الذى فتح الله عليه وامتلك الأرض التى كان يزرعها وزيادة وأنه بعد العدم صار مالكا لدار واسعة فلا تقتنع، ولابد أنهم سكتوا على البنت لسببين: أولهما أنها كانت حلوة وشاطرة وقادرة على أن تسحر العابد إذا شاءت وأنها فى كل الحالات لن تبور أو تتعطل مركبتها فى مجارى الدنيا السائرة، وثانيتها أنها كانت أصغر البنات وأكثرهن تدليلا وقدرة فى الحصول على قبول أهلها وكل ناس كفرنا، تركوها تتمنى وتتمرد قائلين إن نصيبها الغلاب سوف يغلبها مهما طالت الأيام ..

«أيامها كانت الغزالة الشاردة قد جاءت إلى الكفر «الجوانى» بعد أن أقطعها السلطان جزءاً من زمام الناحية مقابل سنوات المعاشرة

الطيبة وقد أعتقها بعد أن كانت جارية مجلوبة من البلاد البعيدة البعيدة، وقال الناس للناس إن طبع الجوارى غلاب، فما إن استقرت حتى فتحت مسكنها لأكابر الناحية، مدير المديرية وناظر الداخلية الذى كانت له عزبة مجاورة لأرض الكفر الجوانى، وقالوا فى سيرتها كلام يشيب - عند سماعه - شعر رأس الحريم الأحرار، كلام فى العهر والفجر وقلة الحياء، واتفق الناس على تسمية الزمام الذى امتلكته «الأرض العريانة» ولا أحد كان فى أيامها يستطيع أن يفسر أسباب زيارات أكابر ضباط الاحتلال لسراية الست هانم جارية سلطان المسلمين وإن اتفقوا على فساد الأغراض، ناس لهم نفس الوجوه البيضاء بحمرة والعيون الزرقاء بخضرة والشعر الذهبى الناعم بصفرة ولهم رطانة مشتركة لا يفهمها سكان العب الجوانى كله، وفى سراية الست هانم جارية مولانا كانت تأتى الجميلات، كل أنوا ع وأشكال وألوان الجميلات، تبحث عنهن الغزالة الشاردة التى غزت التجاعيد وجهها ورقبتها وكفيها لكنها لم تفقد قدرتها على الحركة فى كافة أنحاء المديرية لتبسط هواة الانبساط من الأكابر سواء من أهل البلد أو الغرباء ».

وكانت قد سمعت عن «السبع بنات» وبعثت لأخت جدتى لأم مرسالا فجاءتها تسعى وملء قلبها الخوف، يقول الناس للناس إن

اتفاقا قد تم بالاختيار أو بالإجبار، وأن أحلى البنات من السبع بنات راحت فى سكة الذى يروح ولا يرجع، وظهرت علامات النعمة على الدار لكنها لم تدم كثيراً، ذلك أن كلام الناس يساوى وسوسة الشيطان، كثر كلام الناس فى أذن الرجل الذى هو أب للبنات فراح وهجم على بوابة سراية الست هانم جارية «مولانا» فكان نصيبه فى صباح اليوم التالى أن ربطه الأنفار إلى نخلة فى مدخل البلد وتناوب الأكابر من أهل البلد والغرباء ضربه بالكرباج حتى لفظ آخر أنفاسه، ولكن مصير البنت أختلف، وجدوها عريانة كما ولدتها أمها فى بطن المصرف فأخرجوها ليدفنوها إلى جور الرجل المجلود بالكرباج لتطمئن روحه ويهنأ بوجودها إلى جواره عذراء لم تمسها يد فى رأى البعض، وضحية لغدر امرأة فاجرة ومدربة على قلة الأدب وانعدام الحياء مثل كل نسلها الأجنبى الساكن مدخل الكفر الجوانى متباهيا باسمها الأجنبى عسير النطق على ألسنة الناس فى كفرنا الغلبان وكل كفور العب الجوانى الذى سماها «كعب الغزال» .

وأيضاً قالت جدتى لأبى بأن صلة قرابة حقيقية مؤكدة وثابتة بين الناس الشلبى ونسل الست هانم جارية مولانا سلطان المسلمين الذى سلم البلد للإنجليز والذى خان «عرابى» بمعاونة أتباعه فى النواحى الشرقية من «المجاليب» العبيد الذين تحولوا إلى سادة وأصحاب

معالى بدون أسباب ولا مقدمات فى زمن السلطة» .

وقالت أنه فى زمن السلطة أخذوا من الناس العوف رجالا ما كان من الممكن أن تأخذهم غير سلطة غشيمة وغريبة، تربطهم فى الحبال وتسوقهم كما تسوق المواشى وهم أولاد الناس، يفرون من البحر البعيد ويموتون بالجوع أو بالكرباج ويرجعون فى أكفان رخيصة لتدفن جثثهم مع حقيقة أسباب موتهم، تنكسر شوكة الناس العوف ويظهر نجم الناس الشلبى وتبرز أنياب الناس الشاردة، يحملون السلاح ويقتلون بالرصاص حملة النبابيت والشماريخ مهما كانت قوة الأبدان» .

يتبدل حال العب الجوانى وناسه ولاينجو كفرنا الغطسان وسط غيطان الدلتا وترعها ومصارفها وتتراخى عزائم الرجال لولا صحوة أخيرة جاءت على يد عبد القادر عوف الكبير وعياله فأجلت ضياع الهيبة والعزوة إلى زمن آخر ليس ببعيد يخسرون فيه على مشهد منا سيادة الكفر لحساب الشراودة والناس الشلبى وفكرت :

هل أحمل فى داخلى بذرة الناس العوف من صلب أبى وخلايا الناس الشلبى من بطن أمى؟ وإلى أى حد أستطيع أن أتخلص من الخلايا وقد دخلتنى أو البذرة وقد كانت أساسا لكيانى كله؟ وكيف ومتى انفصلت عن هذه الأصول الأولى لأكون فرعاً من الزرع

النعناعى الذى يعيش فى المنطقة البين بين والذى يتعلم لبس البنطلون والقميص والسترة ويمسك بالقلم ليحسب ويكتب ويصير مستخدماً على درجة ينتظر العلاوة والترقية ويرتكن إلى ضمان المعاش فى سن المعاش؟

وفكرت أيضاً :

أن الوظيفة استخدمتنى وأستعبدتنى ومنعتنى من أن أكون حاكماً أو مساعدا لحاكم شأن يوسف ابن حلاق الحمير، أو أن أكون فلاحاً محكوماً شأن كافة أهالى كفرنا من العوف والساكت والبرعى والشوكى والخروبى والجمال والبقرى والعريان والناصح وكافة الكافة من العائلات صغيرها وكبيرها، أصيلها وعويلها وخسيسها، وانطرح السؤال المخيف من دماغى يسألنى ولا أجيب، ويتكرر السؤال فلا أجيب وأسمع صوت فردوس نفسه يسألنى :

من تكون؟ من تكون؟ من تكون؟ لا حاكم ولا محكوم ؟.

مجلة القاهرة مارس ١٩٩٧

مفارقات الحياة والموت فى كفر عسكر

فى كفرنا وكل الكفور المجاورة اعتدنا موت الرجال قبل النساء وتوقعناه، وقد يموت الرجل فتدخل امرأته تجربة الترمل الطويل أو تسعى لزواج جديد يسترها، وفى كفرنا كنا نشهد كل الحالات بأشكالها وألوانها الحادة والباهتة، نبدأ بمثال لتلك التى رمت عيالها لأهاليهم ليتولوا تربيتهم وتشوف هى حالها، كان قد فاتها قطار الصبا والقدرة وشاب شعرها، غزت تقاطيعها تجاعيد تليق بعمرها، وكانت عندها خلفة كثيرة بعضهم كبر وزال همه والبعض منهم كانوا صغار السن يحتاجون لرعاية الأم، على وجه التحديد رعاية الأم، لكنها فتحت بابها وسمحت للوردانى وهو النفر «التمللى» ابن العبد المجلوب من بلاد العبيد السود بدخوله، قال ناس الكفر أن الست نرجس حرم المرحوم شيخ البلد وديع قللت قيمة روحها بروحها، صحيح أن الشرع يسمح ولا يمنع لكن هناك شىء اسمه العيب وهو ما لم تعمل حسابه فأتاحت للألسنة التى تشبه سكاكين الجزار المسنونة أن

تسلخ جلدها وتغوص فى لحمها وعرضها سافرة وقادرة على تخليق النكات البذيئة عن المرأة التى حكمتها الغريزة وسكنتها من الداخل دودة شقية لا تكف عن الحركة إلا إذا ركبها رجل وأشبعها، ولابد أن شيخ البلد مات بسبب تلك الدودة نفسها ناقص العمر لأنها لابد كانت تطارده وتقلقه وتوقظه من أعز نوم لكى يطفىء اللهب الحادث من حركة الدودة فى اللحم الحى، لكن لأن الناس فى كفرنا تعشق العفو والسماح فإنهم بعد عدة أسابيع من التندر والتعبير عن القرف من أفعال بعض النساء، قالوا لبعضهم أن الله حليم ستار وأنه على أى حال الحلال أحسن من الحرام، كأنما بعد أن شبعوا كلاما فى السيرة أدركوا أنهم حرموا الحلال فمالوا إلى التكفير عن خطاياهم بالحماس الزائد لتحليل ما هو حلال والاعتراف بأن الوردانى العبد بنى آدم من لحم ودم شأنه شأن الأسياد .

لكن الوجه الآخر كان معكوس الست نرجس، ليس فقط لأن نادرة كانت صبية وعفية وتتمتع بطلعة بهية بينما قريباتها وبنات عمرها بازلن بناتا لم يمسسهن بشر إلا أقل القليل، وكانت بنت ناس على باب الله، لا مال ولا أرض ملك ولا عزوة عائلة قادرة على إعالتها بطفلتها الوليدة وقد مات زوجها فى سكة البندر

عندما صدمه جرار الحاج مرسى، لا كان للولد معاش ولا الحاج مرسى نفسه عوضها بأى شىء أكثر من تكاليف الدفن وثمن الكفن، وكان من الطبيعى أن يظهر لها من شباب الكفر من شاء أن يقترن بها ويسترها ويطمع فيها بعض كبار السن من المتيسرين ذوى العيون الفارغة، ولعل علامات الطمع ظهرت لها فى زيارات العزاء المتكررة والتلميحات المكشوفة فى الكلام مثلما فعل الشيخ بسطامى فأوقفته عند حده بحدة وقالت له على رؤوس الأشهاد أن من يدخل سكنها للعزاء فلابد أن يدخله باحترامه ويخرج منه باحترامه، وابتلعها الشيخ بسطامى وتباعد عدة أيام ثم بدأ فى إرسال المراسيل لجس نبض البنت وما إذا كانت على استعداد لأن يدخل حياتها بشكل شرعى وعلى سنة الله ورسوله شريطة أن يكون العقد عرفيا فرفضت، تنازل وأبدى استعداده لأن يكون الزواج شرعياً وبعقد رسمى فرفضت أيضاً وأعلنت لكل من فاتحها بينه وبينها أو وسط الناس أنها سوف تربى طفلتها من كدها وعرق جبينها وأنها لن تجلب لطفلتها زوج أم، نصحها المتعقلون بقبول عرض الرجل لأنها سوف تتحول إلى ست هانم تأكل من خير زوجها ميسور الحال وتلبس ما لم تحلم يوما أن يلمس بدنها، لكنها اعترضت بحسم، وظل الشيخ

بسطامى يحوم حول سكنها وكأنه مسحور أو مكتوب له بالعشق وعدم نوال المراد، ولأنه لم يكن بقادر أن يمنع نفسه فقد أضحك عليه الناس لأنها بصراحة أصغر من بناته، ولأنها بدأت بكشف أغراضه قبل أن ترفضه بعناد حمارة من الصنف الحصاوى الأصيل مما أكد لهم طهارة ذيلها وصدق قولها بأنها بعد المرحوم قصير العمر طلقت الرجال بالثلاثة، ولابد أنها حسبت فى عقلها أن لقمتها فى داره وإن كانت حلوة الطعم إلا أنها سوف تكون مسمومة من عيون زوجته أم عياله وعياله وناس الكفر خارج حدود داره فاختارت السعى فى السكة الصعب، وتركت الناس تتقول على الشيخ بسطامى بحسب ما تسعفهم الألسنة المسنونة :

– دا راجل شايب وعايب واحنا كنا مغشوشين فيه

– بس البنت أجدع من ستين راجل، وقفته عند حده بصحيح

– دا بقى كهنه وضهره انحنى، هو كان فاضل عنده حيل لجواز ؟

وغير هذا كلام كثير قاله الناس وسمعه الناس ومن بينهم أهل الرجل الذين صار كل همهم أن يمنعوه من خروج الدار، وإذا خرج أعاوده وهو ينادى طيفها الساكن دماغه بلا خجل فى

الشارع والدار وكل مكان يتواجد فيه :

– يا نادره .. ردى عليا يا نادره .. نادره

وعندما كان يتعب يسكت ونادرة هناك على مقربة أو مبعدة منه تشقى رو حها ولا تهدأ أبدا، ففى يوم السبت من كل أسبوع تذهب إلى البندر وتشترى الترمس الجاف من البغاشى العطار ثم تعود وتقسمه إلى ست أو سبع أكوام تحط كل كوم فى جلباب مسدود طوقه بحبل أو شوال وتنقعه فى مجرى الترعة جنب المصلية الكائنة قبالة سكنها والعبوة التى تطيب تفرغها فى طبق العشاء الكبير وتغسل الترمس فى ماء الصهريج حتى تلمع قشرته الصفراء وتشتهيه العين قبل البطن، تجلس ببضاعتها عند باب المدرسة والبنت على حجرها، تبيع للعيال الصغار والبنات ولمن يطيب له أن يتذوق ترمسها المملح بحلاوة من الرجال، وكانت البنت تكبر، تزحف وتمشى ثم ترمح وتدخل نفس المدرسة ثم تكبر أكثر وترافق نادرة فى نفس مشوارها اليومى فتبدو مثل أمها فى صباها القديم، وتتحول نادرة وسط الحريم إلى مثال على القدرة يذكرونه للرجال إذا عن لواحد منهم أن يتباهى أكثر مما ينبغى بقدرته .

***

لكن بعض نساء الكفر أيضاً يمتن قبل الرجال، أحيانا تكون الزوج شابه تستحق أن يحزن عليها الرجل كل عمره مثلما حزن عياش الضانى وشغل نفسه بالولدين والبنت، نسى أمر الزواج البديل إلى الحد الذى جعله يحتمل ما كان يشيعه عنه الشباب من أنه فقد قدرته كلها وربما نصفها فخاصم الحريم، كان قد انكمش على نفسه وصار ثقيل الحركة، ومن داره إلى زاوية أولاد عوف للغيط، ومن الغيط للزواية للدار يغسل للعيال ثيابهم أو يجهز عشاءهم ويغطى من ينام وينتظر آذان العشاء ليذهب إلى الزواية ويصلي ويرجع للدار ثم ينتظر بينما هو نائم آذان الفجر ليقوم ويصلى قبل أن يعود ويوقظ العيال، لكنه من فرط دهشة الناس فى كفرنا صار يتباعد عن النساء، توجه له الواحدة تحية الصباح أو المساء فلا يرد، تعرض عليه أى واحدة من قريباته خدمتها أو مساعدته فى شأن من شئون العيال فيطرق مدة ولا يرد وكلأنه خجلان من الرد، وبمرور الأيام اكتشفوا أن عياش الضانى خاصم بالفعل كل الحريم وأنه لم يتبادل على امتداد السنوات عبارة حوار مع أى واحدة سواء قريبة أو غريبة، قالوا إنه أصـيب بمس من الجنون، لكن الرجل كـان فى حـواره مع الرجال عاقلا بكل ما يظهره العقل من علامات، وتطوع حسنين

المدندش وسأله في ليله طلع فيها القمر ونور دروب الكفر وسطح دار عياش الضانى حيث كانا يجلسان، سأله فبكى وأجهش فى البكاء وباح :

- كل النسوان خاينين، أتجوزها وارهن فى جهازها خمس قراريط وتخلف لى عيال أفرح بيهم وأفرح وأقول الدنيا بتضحك لى، أول ما فرحت وقلت الدنيا بتضحك لى، ماتت، ماتت من غير أسباب، ماعيتش ، مارقدتش، ما سخنتش، كانت زى الرهوان.. وهب.. قعدت ع الأرض وشاورتلى ميلت عليها وسألتها مالك؟ قالت لى اقعد جنبى يا عياش.. باينى ح أموت ف لعبة يا عياش، أنا كنت باكفيك وأرضيك وعمرك ما شبعت يا عياش، سلسالك فرعون مابيتهدش أبدا، ثلاث مرات ف الليلة يا مفترى.. قتلتنى وكنت عاشقاك، إن مت يا عياش ما تكشفش روحك على حريم بعدى.. حرام عليك.. حرام .. ح أتعذب فى تربتى يا عياش.. قالت يا عياش وماتت .

والمدندش حفظ الكلام، وزنه وحكاه وربما كان أول شيء غناه على الربابة الجديدة، وكل ناس الكفر سمعت حكاية عياش الضاني وصدقتها رغم أنهم لم يسمعوا بمثلها فى الكفر والناحية ولا حتي في بلاد تركب الأفيال .

– عياش الضانى حكاية يا ناس، عياش الضانى حكاية.

على هذا النحو كان المدندش يبدأ حكاية عياش، وربما يكون وسط جمهور السامعين عياش الضانى نفسه، يسمع ويتعجب ويمصمص الشفاه شأنه شأن الآخرين الذين صاروا يتعاطفون معه ويمنعون الحريم من عمل تلك المشاكسات المتكررة معه والتى كان لايرد عليها بأكثر من إطراقة تطول بطول مدة وجود من تشاكسه أو تعاكسه من النساء، وعندما يطمئن إلى خلو المكان منها يرفع رأسه ويقوم لشأنه، يرجع عياش الضانى الذى نعرفه، لكنه لم يعد يتعرض لمثل هذه المشاغبات منذ زمن طويل وقد طالت قامات عياله وزادت على قامته، ولابد أن حكايته التى كان يغنيها المدندش كل مرة بشكل انضاف إليها جديد وانحذف منها أجزاء لكنها مسموعة ومحفوظة على كل حال لكن عياش الضانى وجه من وجهى عمله الرجال، ولها وجه آخر تظهر فيه صور رجال كثار تجمعهم رغم الاختلافات البادية والظاهرة لهفتهم على الحريم بعد رحيل الزوجات وأحيانا قبل الرحيل، لهفة تتبدى فى استعجال الموت لأم العيال، حتى لا يطول عذابها كما كان همام عوف يدعى بينما زوجته أم عياله الستة الذين صاروا رجالا لهم عيال أو أمهات لهن عيال ولبعض عيالهم عيال،

كان همام عوف أب وجد لخمسين فردا بين كبار وصغار طلعوا كلهم من صلبه ومن رحم ونيسة بنت عمه التى عاشرته وعاشرها ما يزيد عن الخمسين عاما بسنوات، عمر طويل من الزواج والمعاشرة وجيش من الخلفة يتوه فيها أى عقل كما كان همام يتوه، ولولا أن ونيسة بنت عمه كانت صاحبة أرض أضافها لأرضه من أجل العيال وتربية العيال ما تردد فى الزواج من غيرها أكثر من مرة شأنه شأن المتيسرين من الرجال الذين استغلوا يسر الحال فى سكة الحريم سواء بالحلال أو بالحرام، نتكلم فى الحلال لأن الله حليم ستار على عباده، كان همام يسعى فى أعقاب كل بنت لها طلعة أو هيئة أو شكل يعجب ويستحق الانتباه، لكنها على كل حال كانت مناوشات غيطان ينساها أو ينكرها بشدة إذا انفتحت السيرة فى الدار، لكن أن يصل الأمر فى بعض الحالات أن تسر زوجات الأبناء للست ونيسة بما يفيد أن همام طول يده عليها أو قرصها أو زنقها فى جذع شجرة؟ متظاهرا أنه يتناول عباءته المعلقة أو أن يكون قد قال لها كلاما مكشوفا عن علاقتها بالولد، ويعنى به ابنه الذى هو من صلبه وقد زوجه البنت بنفسه وبرضاه، يسألها إن كان الولد يعرف كيف يجعلها مبسوطة من عدمه، أو يقول عنه أنه

خائب الرجاء لايعرف، تسر الواحدة من الأربع زوجات للأربع أبناء للست ونيسة، وكل واحدة لها حكاية شكل، لكن ونيسة كانت أعقل من همام لأنها كانت توبخ البنت وتدافع عنه، تتهم البنت بالميوعة وقلة الأدب لأنها تجاسرت وقالت لها مثل هذا الكلام عن الرجل المحترم الذى يعيش الكل فى خيره بينما هى فى عمر واحدة من بناته أو أقل فى العمر والجمال والأصل، لكنها من ناحية أخرى كانت تعايره بينها وبينه أو على مسمع من الحاضرين فى ساعات الغضب ودون مداراة، يفتعل الغضب ويترك لها الدار ليقيم فى الغيط، وكانت غضباته تتكرر ربما لأنها لا تضيره فى شىء، فالوجبات تصل إليه بانتظام وربما يكون بزيادة ملحوظة فى نصيبه من اللحم أو الطيور المذبوحة التى يحصل عليها فى الدار، كان الأكل يصل إليه صابحا بصابح وكأن ونيسة كانت بهذه الزيادة تحاول أن تسترضيه وتصالحه لأنه - كما كان يشاع - مفجوع وهمه على بطنه وليس عنده مانع من أكل ذكر البط السمين وحده تاركا لجيش العيال وبعض الأحفاد الذكر الآخر، وإذا حذرته ونيسة أو نبهته زام وبرطم :

- شالله ما عن حد منهم كل، هو إحنا ح نزغطهم يا وليه ؟

لكنهـا كـانت تفلح فى إسكاته منعـا للجـرسـة على رؤوس الأشهاد، عمر طويل من الاحتمال عاشته ونيسة التى تحولت بعد هذا الشـقـاء إلى عـجـوز لا قـدرة ولا حـيلة، والرجل وقـد تـخطى السـبعين تتـواتر عنه الحكايات الفاضـحة وكـأنه فى هذا العمر شهوان لم يشبع أبدا، وكان يتشكى بلا خجل :

- عـمرهـا مـا ريحـتنى زى الحريم مـا بـتريح الرجـاله، حـتى اللقمة كانت تستـخسرها فى وتدفسـها لعيالها ونسوان عيالها، ربنا يحش أجلها عن قـريب، يا مـا نفـسى أعيش لى يومين على راحتى يا ناس بس أمتى ترحل وتنزاح؟

ولابد أن أبواب السماء كانت مفتوحة لأن الست ونيسة عندما كـان يبلغـهـا مـثل هذا الكلام كـانت تتـمنى الموت لروحـهـا لكى يرتاح، ذلك أنهـا فى صـبـاح أحـد الأيام أرسلت للغـضـبـان فى الغيط ليرجع بحرامه الصوف لتراه قبل أن تقابل وجه رب كريم، فلم يتردد ورجع للدار بالفعل وكأنه كان يثق فى صدقها فى كل الحـالات، وقـد تأكـد لكل ناس الدرب يومـهـا أنهـا لم تكذب عليه أبدا حتى النفس الأخير من عمرها، ذلك أنه عندما دخل من باب الدار سـألت إن كان هو همام فـأجابوها بـالإيجاب، فطلبت منهم أن ينادوا عليه ليدخل لأن صـوتهـا لايسـاعدهـا على النداء وقـد

انحاش عنها، نادوه ودخل فنظرت إليه وهمست بحروف متقطعة:

– سامحنى

نظر إليها مليا وأراحها مرددا ومستفسرا :

– مسامحك .. هو خلاص ؟

– خلاص

وخلصت بالفعل روحها بعد أن نطقت الكلمة فانتحى جانبا من جوانب الدار وجلس مقرفصا وأحنى رأسه بين ساعديه فترة لم يقترب خلالها منه أحد ولا أحد كان يدرى إن كان قد بكى أو أنه تظاهر بالبكاء أو الحزن، لعله استعاد فى تلك الدقائق القصيرة عمرها الذى طال بحساباته، ولعله كان يدبر أمره وأمور داره بعد أن يحملها مع الرجال إلى المدافن لترقد هناك ويهود بعزمه الشديد وهو يدق بالمداس على الأرض ويلتقط أنفاسه، يملأ صدره العريض بالهواء الجديد، كان همام يبدو صلبا متماسكا بينما يتقبل فيها العزاء وكأنه يؤدى واجبا ثقيلا لم يجهز نفسه لتأديته على النحو اللائق، حتى العبارات التى رد بها على كل من عزاه لم تبد للناس مناسبة :

– مافاتتش من عمرها يوم . هى كانت صغيرة ولا إيه ؟ بس يا بنت الكلب منك لها، بتلطموا علي إيه ؟ اخرس يا ابن

المركوب، بتنهنه على إيه؟ يرحمها ويرحمنا ربنا .. ما أنا عارف إنها أم اللهو العيال. كنت ح أشترى لها عمر تانى؟

وقال ناس لناس أنه كان بينه وبينها سباق طوال السنوات، وأنه من كل قلبه كان يتمنى لها الموت وربما كانت تتمناه له أيضا ومثل هذه التخريجات ولدتها تصرفات همام الذى ما كف عن السعى وراء الحريم، يتعقب الأخبار ويسأل عن ظروف المرأة المطلقة والأرمل ومن بارت وفاتها قطار الزواج، عن إمكانيات كل واحدة فى الخلفة ومطالب أهل كل واحدة من العريس، ساعات يطلب لنفسه بشكل مباشر وساعات يلبس عباءة الوسيط لرجل غيره ظروفه تشبه من بعيد ظروف همام وعمره يقترب من عمره، والناس تجاريه وتحاوره وتحدد مطالبها وهى عارفة أن العريس هو نفسه همام، يراوغ مثل ثعلب مكشوف مع ثعالب وذئاب ونمور وحيات حتى يفوت يوم الأربعين كما نصحوه وشددوا عليه فى النصح، وفى اليوم الحادى والأربعين دخلت دار همام امرأة فى نصف طوله بالتمام، نحيلة إلى حد مذهل بينما كان يبدو للناس مثل الثور الهائج المفرود البنيان صلب التقاطيع، وقالوا أنها بنت ناس من أهالى واحدة من العزب الجوانية، وقالوا أنها من البندر وقالوا من بلد بعيد لم يذكروا له اسما، لكنه على كل

حال أدخلها داره ودخل عليها فى سكات أشبه بزفة الأموات وعياله يتباعدون ويتباعدون عن الكلام فى موضوع الرجل ثم يثور الواحد منهم فى وجه من يحادثه إذا زاد عليه أو زدات نغمة التقريع :

– هو كفر اللى اتجوز؟ هو الجواز حرام ؟ ح تحرموا الحلال؟

حرمت عليكم عيشتكم يابقر وجاموس هو حر ، حد منكم غرم له حاجة؟ إحنا بقى عياله وراضيين، ايش حشركم يا كفر ندابين؟

ولأن أولاد عوف رغم ما يشاع عنهم من أنهم طيبون وذوو قلوب صافية إلا أنهم أحيانا تركبهم العفاريت لأتفه الأسباب ويتحولون إلى ناس فاقدة عقلها ووعيها إذا زاد عليهم الضغط، لذلك كف الناس عن الحديث فى أمر همام أو سؤال عياله وعيال عياله عن أخباره التى تداريها الحيطان، لكن الحيطان لها قدرة محدودة على الإخفاء والتغطية، وربما لأن الحياة أقوى من البنايات الصماء فقد خرجت من الدار زوجة همام لأول مرة وهى تحمل على كتفها طفلها المولود فى مشوار مخصوص للحكيم فى البندر، وعرف الناس أن همام صار أبا للمرة السابعة، وربما لام البعض أم إبراهيم التى ولدت المرأة وكتمت عن كل ناس

الكفر خبر ولادتها فدافعت عن نفسها :.

– دا أنا لو كنت قلت لحد كان قتلنى بصحيح، أصل أنتم ما شفتهوش اليومين دول، دا بقى واحد تانى خالص.. دا لابد فى الدار زى عريس «نغّه» عنده تمتاشر سنة بالكتير .

وصدقها الناس وقالوا لبعضهم أن الكلام فى سيرته لم يعد له طعماً، فإذا كانت كل ناس الكفر رفضت أن تدخل معه فى علاقة نسب أو قبل واحد من أهله أو غير أهله فى الكفر أن يأتمنه على ابنته أو أخته، فهذا معناه أن أحواله بعد موت الست أنيسة لم ترض أهل البلد، لكنه أيضاً ما دام وجد من خارج زمام الكفر من وفقت على عشرته فلن يكونوا هم مثل قطاعين الأرزاق لأن الله أدرى بعبيده، ولا أحد يعرف أسرار الناس غير الخلاق، وما دام الرجل مرتاحا فلماذا تتعبون أرواحكم من غير فائدة وقد حصل ما حصل وهو لايحصل لأول مرة ؟ ومن يكون همام وسط أولاد عوف المزواجين القدامى الذين كان الواحد منهم يحتفظ فى داره أو دواره بأربع ستات، يعاشرهن ولايشبع فيسرح فى البنادر والموالد يتشمم رائحة الحريم الغرباء ويسعى فى إثرها، ينفق ببذخ وبدون حساب، وإذا ماتت واحدة من الستات سعى للزواج من غيرها بعد الأربعين، وإذا مرضت

واحدة تعجل موتها، صحيح أن الزمن كان يختلف عن زمانكم وزمان همام لكن العرق دساس ويمتد لأبعد من سابع جد .

ولأن البيوت أسرار، ولأن ما ينتشر على السنة الناس هو جزء من الحقيقة وليس كل الحقيقة مهما كانت دقة الأخبار فإن الناس فى كفرنا تترك الأمر لصاحب الأمر، ربما لا تنكشف أخطر الأسرار وإن انكشفت فلفترة تنقطع بعدها السيرة ويختصرها الناس فى عبارة للتذكير بما جرى إن كان للتذكير فائدة، ولابد أننى لم أعرف إلا أقل القليل من شئون الأزواج والزوجات فى كفرنا، لم أعرف إلا ما سمحوا لى بأن أعرفه، لكننى بالقطع عرفت أمى وأبى، وعرفت أنهما من بين كل أشكال العلاقات لهما شكل مخصوص وطبع مخصوص ونهاية غير كل النهايات .

كنت وأنا فى مطالع الشباب أخاف على أمى من موت أبى، أتخيلها وقد ترملت ولبست السواد وتعصبت به واستسلمت لحالة من حالات الانطفاء بالاختيار، أو تخلصت منا على أى نحو وعاشرت غيره لأنها مازالت صبية والزواج سترة وحماية من الأخطاء كما يقولون، لا أدرى كيف تسلط على الخوف من مثل هذه المواجهة التى تحدث برحيل الأب، لعلنى لم أفكر فى رحيلها

قبله لأنها كانت أصغر منه بسنوات لم تبح بعددها أبداً، ولابد أننى عبرت لها عن مخاوفى بكلام غير مباشر أكثر من مرة فكانت تفهم قصدى وتطمئننى بأن أبى سوف يكون طويل العمر بإذن الله وأنه سوف يتمكن من تربيتنا وتعليمنا وتزويجنا وهو فى كامل قوته، وأنه لو بعد الشر بعد الشر تولاه الرب برحمته فإنها سوف تعيش لنا وبنا وأنه بالقطع لن يخطر على خيالها أبدا أن تفكر مجرد تفكير فى أن ترقد إلى جوار رجل غيره من بعده، ثم تدعو بعد زفرة :

– وربنا يجعل يومى قبل يومه .

كنت أحزن من أجلها أكثر من اطمئنانى على مصداقيتها وقدرتها على الوفاء لذكراه ولنا، ربما كنت فى مثل هذه الحالات أفهم أسباب خلافاتها الدائمة مع جدتى التى هى أمها، ذلك أن أمى كانت تعتقد أن زواج جدتى الثانى بعد موت جدى لأمى كان خطأ فى خطأ، ذلك الزواج الثانى الذى أنجبت فيه خالتى العبيطة «كاف» وأن المرأة عندما تقبل مثل هذا الزواج الثانى تتحلل من دورها كأم، كنت أشعر أنه قد انبنى بينهما جدار صلب لا يلين أو ينزاح حتى فى أصفى الساعات التى تتفقان فيها على أى شىء وتوشكان أن تمتزجا مثل أى أم وابنتها، كان

الجدار يظهر وينتصب حاجزا قائما وقادرا على الفصل بينهما ولن ينزاح

لكنها فى علاقتها بأبى كانت تختلف، ربا لأنه كان يعاملها بكل الود الممكن ويشركها فى أفكاره، يودعها أسراره وفائض ماله ويسألها عن اللائق والمناسب حتى من ثيابه التى يهم بلبسها لحضور أى مناسبة، يداعبها فى حضورنا ويرمح وراءها، يمسكها ويضمها إليه فى حنو دون أن يفلتها إذا تدخلنا استجابة لاستغاثاتها الضاحكة تطلب منا مساعدتها أو الفرجة على أفعاله.

– يا راجل عيب عليك.. دا عيالك بقوا رجاله

– وأنا باعمل حاجة غلط لا سمح الله ؟ بالاعب مراتى

يقولها وهو يقرصها أو يجذبها نحوه ثم يفلتها متوعدا بأن يأخذ حقه منها فى أقرب وقت ممكن، كنا نضحك ويضحك هو أيضاً قبل أن ينصرف كل واحد لحاله

لكنه فى ساعة القيلولة من كل يوم كان يختلى بها فى القاعة الجوانية فنتهامس بأنه دون شك يلاعبها ملاعبة أشد ولا تفكر فى الهرب منه أو الاستجارة بنا مثلما كانت تفعل فى المندرة أو وسط الدار، نقول أنها هى التى راحت له بنفسها أو استجابة

لنداء أو إشارة منه، ننساهما وقد عشش الصمت على القاعة .

وفى صباح كل جمعة وكل عيد وكل مناسبة سعيدة وأحيانا من دون مناسبة بحساباتنا كانت هى تفتح باب القاعة فنرى فى وسطها طشت الاستحمام الكبير من النحاس الأحمر وقد امتلأ بالماء الممتزج بالصابون، تفرغ الماء فى المواعين الأصغر وتحملها لترميها فى أركان الدار ووسطها البراح، تفعل ذلك بدلع وقد أحاطت رأسها بفوطة كبيرة أو بشكير وكأنها تشهدنا على سعادة قلبها وطراوة بدنها وبياض جلدها بعد الاستحمام، بعدها تعود للقاعة وتجلس على طرف السرير من ناحية الشباك الصغير بينما يتمدد هو مسنودا على المخدتين بكوعه، ربما تنادينا لأى سبب فنراها وقد حلت شعرها المبلول وراحت تمشطه فتبرق خصلاته الغزيرة السوداء فى الأماكن التى تعبرها الفلاية العاج، وربما لا تنادينا ونسمع صوتها وهى تغنى لنفسها أو له .

أمك وأبوك ع السطوح بيفلوا بعضيهم يا عبده
ولا والنبى .. يا عبده قصبك سوس.. يا عبده
بيع واتجوز يا عبده

تحرص بعناد على إقلاقه إذا غفل قبل صلاة الجمعة وتجبره

على القيام ليضع عباءته على كتفيه ويخرج متوجها إلى زاوية أولاد عوف، ربما يصحبنا معه لنصلى معه ونعود لنراها مشغولة بإعداد وجبة الغداء ثم تستمهله دون أن يسألها وتأسف على التأخير وكأنما فاتها تأدية فرض واجب لا يحتمل التأجيل، يركن العباءة ثم يتطوع بمساعدتها فى عمل أى شىء دون أن تطلب ولا يتردد فى مداعبتها بالقرص أو الضرب الهين أو حتى بالكلام حتى تنضج الوجبة ونقوم لمساعدتها على رصها فوق طبلية العشاء، نأكل بشهية وانبساط لأنهما يأكلان بشهية وانبساط،

وفى ساعات الفراغ كانت تجمعنا بينما هو فى مشوار أو عمل وتحدثنا عنه وكيف أنه طيب طيبة نادرة وأنه من حسن حظها أن اقترنت به وخلفتنا، تتباهى بأنه لم يسىء إليها فى كل كعمره الذى عاشه معها لا بضرب أو سب أو حتى لوم ثقيل مهما ارتكبت من أخطاء، كان يكتفى بسؤالها مستنكرا عليها الخطأ :

– كده برضه ؟ إنتى اللى تعملى كده ؟

تعتذر له أو حتى تسكت عن تبرير الخطأ فيهز رأسه ويغير الموضوع وتنساه، تقول أن عيبه الوحيد هو أنه لا يدخل فى أى صراع على أى شىء فى الدنيا، وأنها كانت تتمنى لو طالب أمها

بميراثها الشرعى الذى ورثته عن أبيها والذى نهبته جدتى ولم تشأ أبدا أن تعترف بذلك، كنا نفعل مثله ونطالبها بأن تنسى ذلك كى تريح نفسها فتشتمنا وتتهمنا بأننا مثله أطيب مما ينبغى، نفرح بأبوينا ونتمنى أن نفعل مع زوجاتنا مثلما يفعل عندما نكبر لكن مسألة الموت ظلت فى عقلى مثل الهاجس المتسلط أو فى منطقة الاحتمال الدائم، تناوشنى وتعذبنى ولا أملك المقدرة على زحزحتها بعيداً عنى حتى فى أسعد الأوقات، كانت طيوره تحوم حول أبى فى كل الحالات فاشفق فى الخيال عليها وقد ترملت، وكنت أحيانا أطمئن نفسى وأقول أن المرأة أقوى من الرجل فى مواجهة الموت رغم الصوات واللطم والندب والتعديد، أقول لنفسى هذا وقد سلمت أمرى لله الخالق مانح الأعمار وواهب الحياة إلى أجل قريب.، يمدها أو ينهيها بحسب ما يشاء، يسكن قلبى بعض الوقت ويعاود الانشغال، لا أملك القدرة على الفرار من سواد الأفكار وترتسم صورته على درابة الغسل بينما تولول هى وتناديه فلا يرد، تطلب منه القيام فلا يستجيب.

لكن ما جرى خالف كل هواجسى وظنونى لأنها ذات نهار كانت قد حمرت لنا ديكا ودست أرزا وطبخت قلقاسا بالخضرة

فتغدينا وانبسطنا وكانت هى مزدهرة بينما يشاغبها على عادته وتتباعد عنه بخفة ولطف، يسألها وقد اقترب منها عن أسباب حمرة خديها الزائدة عن المألوف فترمح لتقف أما المرآة، تطل على سطحها وتتحسس خديها بفرح لأنها تأكدت من زيادة احمراريهما، تبدو صبية عفية فى حركتها وقد زاد نشاطها بينما ترفع بقايا الطعام، لكنها وعلى غير توقع وقد كان هو بعيدا عنها بمسافة قالتها مرة واحدة .

– آه

نظر إليها وسألها عن سر الآهة فلم ترد، اقتعدت الأرض فى نفس مكانها وقد أمسكت ظهرها بكلتى يديها من منطقة الوسط أعلى الحوض، تدافعنا نحوها معه فنظرت إلينا بأسف وهمست له :

– دى سكة موت

– إنعدلى

قالها وهو يساعدها على التمدد فى مكانها على الأرض وأنا أضع الوسادة التى لم أعرف من أتى بها تحت رأسها، تأوهت هى عدة تأوهات وبدا لى أن عظام هيكلها كانت تتكسر مثل زجاجة مصباح رقيقة وأسمع صوتها، شهقت هى شهقة واحدة

ثم غابت عيناها وكفت عن التنفس، يهزها ونهزها فتهتز وقد بردت أطرافها وسرحت البرودة فى كل بدنها وكلنا يكذب أنها يمكن أن تنخطف منا بهذه السهولة وعلى هذا النحو المفاجىء فى لمح البصر، وكانت ما تزال ترف على ملامحها ابتسامة الأسف، بكيناها وبكاها قبل أن يشعر بنا الجيران والأهل، كأنما كان هذا الوقت لنا ويخصنا وحدنا، لكنهم دخلوا الدار بعد ذلك فانقلبت الأشياء لأن الدار التى كانت تتفجر منها وفى أركانها الحياة صارت فجأة مكانا يلتقى فيه الوسطاء بين الموتى والأحياء ممن يجهزون الأكفان ويغسلون الأبدان قبل تكفينها، وكانت صرخاتنا لا تصل إلى أسماعها بالقطع لأنها لو وصلتها فلابد أنها كانت سوف ترد، انعزلت عنا تماما وانعزلنا عنها، وكان النعش المركون جنب الجدار عند مدخل الدار علامة تؤكد أنها لن تفيق وأن هذا الغول المركون بلا حس ولا ذمة هو الوسيط الأخير بينها وبين المدافن حيث السكون الأبدى واللا رجوع .

كان يناديها بصوته المبحوح بينما يضعون جسدها فى النعش، وعلى الرغم منه منعوه من حملها أو الذهاب إلى المدافن معنا فى رحلة الوداع لعله بكى بكاء الضعفاء المغلوبين على

أمرهم وصار يناديها ونحن نتباعد حتى اختفى صوته تمام وما عاد فى الآذان غير الاعتراف المتكرر الذى يلجأون إليه فى كل مرة يحملون فيها نعشاً فى طريقهم للمدافن، اعتراف بإيقاع رتيب مهموم ومستسلم وباعث على اليأس من التعلق بالأوهام .

– الدايم هو الدايم .. ولا دايم غير الله .

وبعد طقوس الدفن وقراءة القراء وتلقين التى انسك على بدنها باب المدفن عدنا، تتقدمنا جدتى لأمى، صامدة وصلبة وقادرة على الاحتمال، رأيناه جالسا وحده ينظر إلى سقف المندرة ولا ينطق، وهمس الغباشى لجدتى :

– الراجل من ساعة ماسبتوه وهو على دى الحال

أشارت إليه تطلب أن يسعفها بكوز ماء فاسرع وملأ الكوز ثم ناوله لجدتى، اقتربت منه بالكوز فلم يحرك بصره من حيث كان يطل لكنه أزاحه بيده ربما بشكل عفوى وربما بشكل مقصود، لكن الماء اندلق ومال أبى برأسه جهة اليمين ثم مال بكل بدنه رغم أننا كنا حوله نسنده، ربما تكون قد فاتت ساعة أو بضع ساعة من الزمان الصعب قبل أن يسلم الروح هو الآخر وتنحط على رؤوسنا بلوتان كبيرتان فى نهار واحد، ولابد أنه كان قد تواعد معها فى الخفاء على الرحيل معا لأنه فى نفس

اليوم انفتح نفس القبر للمرة الثانية ليضم بدنه إلى جوار بدنها وقد تكفن بنفس قماش الكفن وبدا لى وأنا أقف على قبرهما أسمع وصايا من كان يلقنه أننى كنت أسمع همساتهما الخافتة وهى تضاحكة ويضاحكها مثلما كانا يفعلان فى قيلولة كل نهار داخل القاعة الجوانية .

كنا فى كفر عسكر أول من تيتم مرتين فى نهار واحد، وكنت وحدى أشعر أننى خلصت من هواجسى القديمة التى كانت تتسلط على عقلى فأسألها وأسأل نفسى عن مصيرها إذا مات وتركها أرملة، ولعلها بفعلتها جاوبتنى على خلاف ما كنت أتصور أو أظن أو يسمح بذلك خيالى .

مجلة إبداع أغسطس ١٩٩٦

والبنت كانت بنت موت

- مات الملك .. عاش الملك.

سمعتها لأول مرة وأنا بصحبة أبى فى البندر، كان أبى يمسك بيدى وهو يتجه إلى محطة القطار، كان هناك على رصيف المحطة زحام من الأفندية بالطرابيش والملابس الإفرنجية والمشايخ بالجبب والقفاطين والعمامات وأولاد البلد بالجلابيب والطواقى، وعندما سمعوا صوت القطار رجعوا إلى الوراء خطوات متباعدون عن الرصيف، كانت صفارة القطار عالية الصوت وكان الدخان الكثيف الأسود يخرج من المدخنة الكبيرة على سطح الونش، عندما توقف القطار نزل على الرصيف أفندية بطرابيش ومشايخ بجبب وقفاطين وعمامات فازدحم الرصيف أكثر وتراجعنا إلى الوراء أكثر قبل أن نسمع الهتاف.

- مات الملك .. عاش الملك.

وردد كل من كانوا على أرضية الرصيف المزحوم وبعض من كانوا يطلون من النوافذ الهتاف نفسه، بعدها تجمعوا حول

الأفندى النحيل لابس البدلة الرمادية والطربوش وقد اعتلى دكة خشبية وصار يحدثهم بكلام لم أحفظه وإن كنت حفظت الهتافات التى قالها عدة مرات وكل الناس ترد عليه وأبى يرد عليه معهم بحماس وأنا من فرط قصرى لم أعد أرى وجه ذلك الأفندى بالطربوش :

– مات الملك .. عاش الملك.

وعندما عدنا إلى الكفر أفلت يدى من يده وصرت أجرى فى شوارع الكفر وأهتف بنفس الهتاف والعيال تتبعنى وتردد الهتاف، أهتف والعيال تتزايد من حولى ويرددون الكلام ورائى وتتزايد اعدادهم أكثر، لابد أننا اكتشفنا فى ذلك النهار لعبة جديدة اسمها «مات الملك عاش الملك»، حتى بعد العشاء عدنا وتجمعنا ولعبناها وكان يحق لى أن أقودها فى ذلك النهار والمساء لأننى كنت أول من اكتشف اللعبة ونقلها من البندر إلى عيال كفرنا الصغار والكبار على حد سواء، لكننى وأنا راجع سألت نفسى كيف استطاع الملك أن يموت ثم يعيش فى نفس الوقت، وتذكرت أن الملوك غير الناس العاديين أمثالنا، الملوك فى كلام كل عيال الكفر الأكبر منا يستطيعون عمل أى شىء، وفى مراهناتهم بعضهم لبعض كان الولد الكبير يقول للولد الأصغر

منه مثلا :

– ابن الملك يقدر يطلع النخله العاليه، ويقدر ينط من فوق السطوح ع الأرض ما يتعورش .. تقدر إنت ؟

– ابن الملك يقدر يعدى البحر وأيديه ورجليه مربوطين فى بعض، ويقدر يسبق القطر وهو بيجرى .. تقدر إنت ؟

وكم من مراهنات مستحيلة اخترعوها واخترعناها معهم لتأكيد قدرات الملك وابن الملك التى شافها ناس كبار، أب أو عم أو خال أو أخ أكبر شاف بعينيه وأقسم على المصحف أن ابن الملك فعل كذا وكذا دون أن يعترض علي الكلام أو الفعل أحد طالما هو منسوب إلى الملك أو ابن الملك، لكننى كنت أتعجب لقدرة ابن الملك على الحياة بعد الموت خلافا لكل الناس الذين سمعت عن موتهم الذى يكون بلا رجعة كما يؤكد كل الناس الكبارَ فى كفرنا، فكرت أن أسأل أبى لكننى نسيت بمثل ما نسينا فى الكفر لعبة مات الملك عاش الملك بعد عدة أيام.

لكن سيرة الملك نفسه انفتحت فى دارنا من خلال الشيخ عبد الصبور الذى كان قريبا لأبى من بعيد وكان له شقيق أصغر شفناه فى شرخة فى الأرض مجاورة لأرضنا من الناحية الشرقية لكنه أختفى وعرفنا من الشيخ عبد الصبور أنه دخل

الجيش لتأدية الخدمة العسكرية لعجزهم بالقطع عن دفع «البدل» بحسب ما كان الشيخ عبد الصبور يتكلم عنه متأسيا فى أول الأمر، لكن نبرة الرجل عن أخيه تبدلت وتغيرت وصار يكثر من زيارتنا ويطول الوقت الذى يقضيه عندنا وليس له كلام إلا عن أخيه عبد النصير الذى اختاروه وحده من كل المجندين في مديريتنا ليكون من ضمن الحرس الملكى، يصف لنا ملابس التشريفة التي يلبسها وهو راكب الحصان بالكسوة أمام موكب جلالة الملك، وكيف يرافقه فى كل تحركاته وينعم أحيانا بعطف جلالته على عساكر حرسه الذين يأمر لهم أحيانا بوجبات من اللحم الخالص الذى يأكل منه ويصرف لهم هبات مالية تساعدهم، يسمح لهم بركوب القطارات بالمجان، وكان كل ما يتمناه الشيخ عبد الصبور أن يجددوا له مدة الخدمة فى الحرس الملكى فاقترح عليه أبى أن يكتب له طلب تجديد بنفسه ففرح الرجل ودعا لأبى بزيادة الرزق والستر فى الدنيا والآخرة، كتب أبى فى نفس اليوم طلب التجديد بخطه وسلمه للشيخ عبد الصبور ليسلمه إلى أخيه عبد النصير فى أول إجازة ينزل فيها الكفر، كأنما كان يريد أن يريح نفسه من هوس الرجل بكتابة هذا الطلب الذى لابد انه كان يتمناه، لكن زيارات الرجل

تواصلت ولم يكف عن المجيء بحسب ما كان يحسب أبى ولم يكف عن الحديث عن جلالة الملك وحرس جلالة الملك، يستفسر من أبى عن رأيه فى مستقبل عبد النصير إذا قبلوا طلب تجديد خدمته فى الحرس الملكى فيطمئنه أبى، يتنهد ويهز رأسه ثم يقول وكأنما يحادث نفسه :

– دا لو جددوا له ح تنفتح له طاقة القدر، ح يعيش فى خير ما حدش يحلم به ف الكفر كله والناحيه كلها، ومش بعيد كمان يحوش أرض ويصير من الأعيان.

– ربنا يسهل وينولكم المراد.

يقولها أبى ويحاول أن يغير الموضوع، لكن الرجل يعيد ويكرر ما سبق أن قاله وردده وحفظناه، ومرة همس بصوت خافت فى أذن أبى لكننى سمعته :

– ما تدينا زينب بنتك لأخويا عبد النصير.

– زينب ح تكمل علامها يا شيخ عبد الصبور، دى لسه عيله، ولما تكبر تبقى تاخد اللى يليق لها ويكون صاحب النصيب، ما تزعلش منى إن قلت لك ماتفتحش السيره دى تانى، زينب ؟ لأ لأ.

كانت حسابات أبى أن الرجل سوف يكف عن المجيء أو على

الأقل يخفف من زياراته لنا لكنه لم يفعل، ظل يأتى ويتحدث عن عبد النصير وحرس جلالة الملك الذى تزيد فيه قيمة الشريط على قيمة الدبورة على كتف الضابط فى أى سلاح، من كثرة حكايات الشيخ عبد الصبور عن أخيه بدأ أبى يتهرب منه ويأمرنا بإنكار وجوده لو سأل عنه وهو الذى لم يفعل مثل هذا الأمر أبدا مع غيره من ناس كفرنا رغم القرابة المؤكدة التى تربط بينهما.

وذات مساء جاء الشيخ عبد الصبور ووقف أمام باب دارنا المفتوح ونادى باسم أبى، وقبل أن تفكر أمى فى إنكار وجوده فاجأها وهو يتقدم ناحية العتبة قائلا :

- أنا عارف إنه لسه واصل دى الوقت وداخل من باب الدار، أصل أنا شفته من فوق سطوح الجماعه، عقبال عيالك عايز أبشره بالخير اللى جايله والسعد اللى ح ينكتب له.

- إتفضل.

ودخل إلى القاعة ورحب به أبى على مضض وانتظر ليسمع البشرى التى وعد بها فلخص الشيخ عبد الصبور الأمر فى قبول طلب التجديد الذى تقدم به عبد النصير للبقاء فى خدمة الحرس الملكى، وكيف أن أبى بخطه الذى هو مثل سلاسل الذهب يفتح الأبواب المسكوكة، ذلك أن جلالة الملك قرأ الطلب بنفسه وعبر عن

إعجابه بالخط وفصاحة كاتب الخط الذى هو أبى، بل إن جلالة الملك طلب الأومباشى عبد النصير وسأله إن كان هو الذى كتب الطلب فلم يكذب أو ينسب لنفسه خطأً لا يخصه، قال الحقيقة فى حضرة جلالة الملك والناس الأكابر الذين كانوا فى مجلسه، بل إن عبد النصير ذكر اسم كفرنا فانبسط الملك والناس الأكابر وضحكوا جميعا ثم قالوا له قبلنا طلبك يا عبد النصير.

– مبروك اللى شرف كفرنا وناسه.

– بكره الخلق ترمح وراه ما حدش يحصله.

ولم يعلق أبى على كلامه متحاملاً على نفسه حتى لا يفسد على الرجل فرحته، لكن الرجل لم يكف عن التباهى بما حدث، شرب أكثر من مشروب بعد أن شاركنا وجبة الغداء ثم اعتدل فى جلسته وهمس بجدية ظاهرة :

– خدمة قصادها خدمه، تنزل مصر وتروح على ميدان عابدين، تسأل على عبد النصير أخويا ألف مين ح يدلك عليه، ح ياخدك للظابط رئيسه فى الحرس الملكى، ح يدخلك على طول ويفكر جلالة الملك باسمك وبلدك وخطك، ح تتعين خطاط فى الديوان الملكى، شوف أنت بقى خطاط فى الديوان الملكى تساوى إيه ؟ مش بقولك ح ينكتب لك السعد ؟ ونبقى بالمرة نخلص

موضوع كتب كتاب البنت على أخويا عبد النصير.

ساد صمت شعرت فيه بالزهو لأن أبى سوف يكون خطاطا فى الديوان الملكى وأنه لابد سوف يرى الملك جالسا على عرشه وربما يجعلنى أراه، لكننى أفقت من خيالاتى وأنا أسمع صوت أبى الغاضب.

– بقى إنت جاى وعينيك مفتوحه كده وعايز البنت كمان لاخوك ؟ هو أنا مش سبق وقلت لك زينب بنتى ماتليقش مع أخوك؟ مش قلت لك ؟

– هو إنت ح تفضل مستقل بعبد النصير لأمتى، ده رايح يتوسط لأجل تشتغل شغلانه ماكنتش تحلم بيها، ما تلين دماغك لأجل مصلحة نفسك.

– الله الغنى يا أخى.. مش عايز أتوظف فى الديوان الملكى اللى أخوك ورثه عن المرحوم أبوك، قاعد مستنى إيه يا عبد الصبور أجيب لك عرقسوس تبل ريقك ؟

لم يكن فى دارنا عرقسوسا، وربما لم يدخل العرقسوس دارنا فى حياة أبى الذى لم يكن يحبه أبدا رغم انتشاره فى معظم دور الناس فى كفرنا خصوصا فى شهر رمضان، كدت أذكر أبى بتلك الحقيقة مخافة أن يوافق الشيخ عبد الصبور

كعادته كلما اقترح عليه، أبى مشروبا أو طعاما، لكن الرجل نظر إلى وجه أبى الغاضب وقام نصف قومة ثم أكملها على مهل متوكئا على عصاه، ربما يكون قد غمغم بكلام غير مفهوم لأنه كان نصف منطوق ونصف مسموع، وخرج الشيخ عبد الصبور من دارنا نصف مطرود فى تلك الليلة الشتوية وربما لم يدخلها بعد ذلك أبدا ولم أكن أيامها أعرف الأسباب، وربما فسرت الأمر بعلاقة كانت بين الرجل وشراب العرقسوس أو أنه هناك حادثة حدثت له، على أى الحالات تباعد عنا ولم نعد نراه أمام الدار أو حتى فى شارعنا إلا نادراً لكن سيرته كانت تنفتح فى مناسبات عديدة عندما يتحدثون عن أخيه عبد النصير الذى شاع فى الكفر أنه صار من الواصلين الذين يتوسطون لحل المشاكل العويصة فى كل الناحية وذلك بسبب أنه كان يحرس الملك نفسه ويراه ويتقبل عطاياه ويشترى الأرض التى ما كان يحلم بامتلاكها أبدا ولا حسب نفر من ناس الكفر انه سوف يطأها بقدمه، حلاق الحمير أبو يوسف نفسه كان يقول عنه هذا الكلام رغم القرابة الشديدة بينهما، لكن الرجل عندما كان يأتى كان يطيب له أن يفتح السيرة :

– وهو إن على ولا وطى مش حتة عسكري ولا حتى شاويش،

إيش جاب لجاب، دا المرحوم أبوك دفع لكم «البدليه» نهار ما كانت العشرين جنيه تشترى فدان طين، دفع لكم لأجل ما حدش عندكم يلبس الميرى، يقوم المخفى ده يقولك روح لأخويا عبد النصير ونادى عليه فى ميدان عابدين لجل يتوسط لك تشتغل فى السرايه خطاط؟ لأ ما كانش له حق أبدا يتجرأ ويقول كلام زى ده لواحد محترم زى حضرتك.

ولابد أن كلام أبو يوسف كان يدوس على جرح أبى الذى كان يتشكى من أن علاوة دورية راحت عليه أو أن ترقية كان يستحقها لم يحصل عليها وحصل عليها من كان أقل منه، صار يتحدث باعتباره من مظاليم وزارة الصحة، لكنه أبدا لم يوافق على كتابة مظلمة يأخذها أى واحد باليد ويسلمها لعبد النصير ليقوم بتسليمها لجلالة الملك وهو الذى كتب بخطه الذى يفتح السكك المسكوكة بعشرات المظالم التى كتبها لناس من الكفر ومن خارج حدود الكفر فأثمرت وأعادت الحقوق الضائعة ورفعت عن المظلومين الأذى، لكنه لم يوافق أن يكتب مظلمة ليعيد لنفسه حقه التائه فى ملفات المديرية الصحية فأدهش ناس الكفر كله.

كنت أشعر أنه رغم الضحكات حزين، كنا نكبر وتزيد مشكلاتنا فى الدار والمدارس، وكانت أمنياته القديمة فى عدل

الملك الشاب الذى كبر تتناقص وتتضاءل ثم تنعدم، وكلما زادت مشاكلنا أو ضاعت من راتبه علاوة أو فاتته ترقية زاد غضبه على السراى والملك وحرس الملك، ورغم رفضه لبيع ميراثه من الأرض إلا أن أملاك عبد النصير وعبد الصبور التى كانت تجاور أرضنا من ناحية واحدة فى شرخة ضيقة وقصيرة من الناحية الشرقية امتدت واتسعت وصارت تحاصرنا من كل الجهات تقريبا، ربما لأنهم كانوا يدفعون بسخاء لمن يبيع لهم من جيراننا القدامى، ولابد أن الشيخ عبد الصبور كانت له أغراض يفهمها أبى ويتوجع منها وتخفى على أمثالى فى ذلك الزمن البعيد.

* * *

كنا من غير زينب فى عين العدو خمسة كما اعتادت أمى أن تقول دائما وهى تفرد كفها اليمنى بطول الاصابع وتمدها واقفه بين وجهها ووجه من تتوقع منه مخاطر الحسد، لم تكن تفرق بين الأقارب والغرباء، وربما كانت تفعلها أكثر مع اقرب الاقارب، جدتى التى هى أمها أو فرحانة أم يوسف أو خالتها الباتعة أم مرسى، أحيانا كانت تفعلها فى وجه أبى الذى كان يضحك وهو يسألها باستنكار عارفا مقدما جوابها، يسألها إن كان من

الممكن فعلا أن يحسد الرجل أولاده فتجاوبه بأنه لا يحسد المال أو الطير إلا أصحابه ولا يحسد العيل إلا أهله وأحبابه، يسكت ويدعوا لنا جميعا بالستر ويطلب من الله أن يحفظنا إكراما لخاطرها، وربما يكون قد قال لها مرة أو لم يقل لها: أنه لو حدث لا سمح الله وأصاب أى عيل من عيالها مكروه فإنها لن تحتمل، تصاب بالجنون أو تطب ساكتة، لعلنى كنت أعيش حالة من حالات التوقع الصعب بسبب تكوينها وقلقها الذى لا ينتهى وكان أبى لا يملك غير طمأنتها وتهدئة مشاعرها المتوترة.

لكن زينب التى كانت خارج حدود قبضة اليد المفرودة فى وجوه الحاسدين أصابتها العين بين يوم وليلة فتحولت فى قلب أمى إلى جرح بلا دواء وفى قلب أبى إلى وجع لا يملك نسيانه أو دفعه أو حتى التقليل من فداحته، وقد بدا أن أمى بالفعل لن يواسيها كلام أو يرضيها عزاء، ربما لأن زينب نفسها كانت أبعد ما تكون بحسابات أمى علي الأقل عن منطقة الخطر، كانت البنت بأدبها وخفة دمها وحيويتها بالاضافة إلى صحتها وجمال تقاطيعها تزرع فى قلوب الكل أملا وارتياحا مطمئنا، كأنما كانت خارج دوائر التوقعات الصعبة. لكنها كانت مثل مصباح شديد الإضاءة نفخت فيه نسمة عابرة فاهتز الشعاع ثم انطفأ،

وكانت بالنسبة لى مثل خيال مسافر وعد بالرجوع لكنه لم يرجع أبدا، ولأن أمرها كان عسيرا على التفسير بالنسبة للكبار فقد كان خيانة من عزرائيل بكل ما تعنيه كلمة الخيانة من دلالات بحسب ما كنت أحس فى تلك المرحلة المبكرة من العمر بوعيها المحدود.

البنت رجعت من المدرسة وملأت أركان الدار صخبا، شاكست الكل وقبلت من الكل المشاكسات الودودة المتآلفة ثم فجأة حطت كفها على جمجمتها وبدا أنها سوف تتأوه، لكنها لم تفعل، اهتزت فى مكانها نفسه وكل عيوننا عليها نناديها فى صوت واحد مشترك، ربما تكون قد شعرت بدوخة أفقدتها التوازن وكادت أن تقع على الأرض لكن أبى كان هناك فتلقفها على صدره وأحاطها بذراعيه، حملها مدهوشا وأرقدها على طرف السرير، طلبت أن تشرب جرعة ماء فقربت أمى حلق القلة من فمها، ظلت تشرب وتشرب حتى أفرغتها وأشارت تطلب المزيد :

– عطشانه.

لكنه لا الماء الصافى ولا الماء بالسكر ولا العسل النحل المذاب فى عصير الليمون جعلها تشعر بالارتواء، وأسرع أبى إلى

البندر راكبا جحشته السريعة ليستدعى الطبيب من المستشفى كما أشارت عليه أمى، ربما يكون الوقت قد طال وربما لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع صوت سيارة الطبيب يهدر ثم يتوقف أمام الباب، كانت زينب قد راحت فى إغفاءة قصيرة من فرط الإرهاق، لكنه عندما فحصها الطبيب لم يجد فيها شيئا مخالفا للمألوف، استمع إلى وصف أمى باهتمام ظاهر لكن دون اقتناع واستدار لأبى قائلا :

– البنت ما عندهاش حاجه .. يمكن دلع بنات.

لكن البنت تحركت وكذبته وهى تهمس لأمها .

– عطشانه .. أشرب

كانت أمى تسقيها والماء الذى تشربه يتصبب من مسام جلدها عرقا غريزا لا يكف عن معاودة الظهور وبكثرة رغم أن أمى كانت تجففه بالمناديل وفوط الوجه والملاءات ولا بد أن الطبيب أحتار فى أمرها وأجهد ذاكرته لعله يكون قد قرأ فى كتب الطب التى درسها شيئا يشبه ما يراه وقد تحولت البنت إلى أرض «شراقى» فى عز بؤونة الحجر، ينصب الماء فى فمها المفتوح وبكثرة فينشع من مسام بدنها فلا الماء يكفيها أو يرويها ولا المسام تنسد، لعلها كانت تحتاج إلى سيل من مطر لا يتوقف

أو مجرى نهر نرميها فيه فينطفىء اللهب الذى ما رأيناه ولا رآه الطبيب الجديد الذى نزل كفرنا لأول مرة لعله يؤدى خدمة لأبى ويعالج البنت، لكنه عندما أعيته الحيل اقترح أن يركب سيارته ويذهب إلى البندر يستدعى مدير المستشفى أو أى طبيب آخر فلعل وعسى أو كما قال لنفسه :

– وربنا يستر .. ربنا يستر.

ربما كانت السيارة وقد تباعد صوتها قد وصلت إلى أول السكة الزراعية فى طريقها إلى البندر عندما فتحت زينب فمها وأشارت ألى القلة وهمست الحرفين لم تكملهما :

– أش ..

ثم سكن الرأس فى مكانه نفسه، تحركه أمى فلا يتحرك، تهزها فيهتز بدنها باستسلام وقد فقدت قدرتها على الإحساس أو الحركة، كانت أمى تناديها ولا ترد، لكن قطرات العرق كانت تنز من جبهتها ولا تكف، حتى وهى على «درابة» الغسل كانت تغسل بدنها الطري بعرقها والنسوة يكذبن عيونهن ويقسمن أنهن لم يشهدن فى كل أعمارهن واحدة مثل زينب.

– عروسة فى ليلة الجلوه، على وشها نور وجسمها بيلمع كما البدر – زينب من بنات الحور.

مـثل هذا الكلام قـالوه وقـالوا اكثر وأكثر، ولعل فرحـانة أم يوسف كانت أكثر النسوة مـلازمة لأمـى تجالسـها طوال النهار وتتركها فى أوقات الرقاد ثم تأتيها فى الصباح الباكر، توقظها إن كانت نائمة لتحكى لها المنام الذى شافت فيه زينب :

– شـفتها النبى حارسـها وصـاينها لابسه أبيض فى أبيض، وكانت ضحكتها منوره وهى بتقولى روحى يا خاله فرحانه طمنى أمى وقوى لها إنى فى الجنه ونعيمـها وأن ربنا أختارنى وسقانى من نهـر الكوثر، سـألتـهـا نهـر الكوثر ده فين يا زينب يا بنتى ضحكت وطارت لبعيد زى ما تكون حمامه بيضاء، عارفاشى نهر الكوثر ده يبقى ايه ؟ أه . أيوه .. تبقى فى الجنة صحيح.

تسكت أمى مدة ثم تنخرط فى البكاء وهى تهمس لفرحانة :

– يا بختك بتشوفيها يا أختى .. امال أنا ما بشوفهاش ليه ؟

ترد عليها جدتى إن كانت حاضرة :

– من عمايلك اللى بتعمليها فى روحك وروحها.

كانت فرحانة فى تلك الأيام رفيقة أمى، تأتنس بها وتبوح لها بحرقة قلبها على زينب والأخرى تواسيها بالكلام المريح وتحلم لها كل ليلة حلماً جديد شافت فيه زينب :

– وشفتها يا حبة عينى واقفه على كرم نخل وعيال صغار

بتجمع لها بلح من كل شكل ولون، زغلول وسماني وأمهات ورطب وابن عيشه، تمر وابريمي وسكوتي وبلدى وجنديله، يجمع لها العيال البلح ويحطوه فى حجرها، بصت لى وناولتنى حفان تمر ما دقتش زى طعمه ولا إتحط على لسانى طول عمرى .. ده بلح الجنه ما فيش كلام.

– الغاليه صحتنى من النوم وأنا نايمه فى المنام، قالت لى روحى لامى خليها تطلع شوال البلح الأبريمى المحطوط فى «الحضير» البحرى وتفرقيه ع اليتامى فى ليلة الخميس الكبير.

وتبدى أمى دهشتها لأنها خرنت البلح فى الحضير البحرى بالفعل وبحسب ما أقسمت لم يعرف سر بلحها غير المرحومة، يتأكد لها أن فرحانة صادقة فى كل أحلامها وأنها لا شك نطفة طاهرة ومظلومة فى معيشتها مع رجل لا يستحقها، تأمرنا بأن نطلع ونفرغ البلح المخزون فى الشوال وأن نعطيه لفرحانة لتوزعه بمعرفتها على روح المرحومة، وأشياء أخرى شبيهة بهذه الأحلام وتلك الرسائل التى كانت فرحانة تنقلها من زينب الساكنة بجوار نهر الكوثر وأمى التى كانت توشك على الجنون لولا هذه الحكايات والأحلام والوصايا التى كانت تنفذها دون تردد أو تفكير، حتى فى الأيام التى لا تفاتحها فرحانة أو تحكى

لها حلما جديداً شافت فيه زينب كانت أمي تسألها إن كانت زينب غضبت عليها فتهبد صدرها بفزع :

– يا حومتي .. تغضب عليا إزاى ؟ دا أنا خالتها .. مش بيقولوا الخالة والده ؟ إنتى فكرك أنها غضبانه منك ؟ أبدا .. دى زعلانه عشانك، وح تجيلك فى المنام قريب، دى هى اللى قايلالى بعضمة لسانها .. تعالى أما احكى لك على اللى شفته ليلة إمبارح.

تستسلم أمى لها وتبدأ فى سماع تفاصيل المنام الجديد، تبدو وقد استغرقت فى الحلم وعاشته لحظة بلحظة والأخرى تواسيها وتربت على كتفها بحنو وربما تتأثر أكثر وتشارك أمى البكاء.

لكن أصعب يوم وأصعب ليلة فى تلك الفترة الحزينة كان يوم الخميس الكبير وليلته، ربما لأن أمى انشغلت قبلها بالناس من الأهل والأقارب والجيران قريبهم والبعيد، يحادثونا ويواسونها، كانت الدار مزحومة بالرجال والنسوه والعيال، وكانت طواجن اللبن قبل ليلة الخميس تأتى محمولة على رؤوس البنات بلا عدد، ووسط الدار يمتلىء بالطيور الغريبة والأركان بعبوات التمر وثمار البرتقال، وليلة الخميس نفسها سهرت النسوة حول

المواجير تعجن القرص والفطائر أو أمام الفرن تخبزها وتفردها على الحصائر لتبرد قبل أن ترصها فى السلال وبأعداد فردية دائما، خمسات أو سبعات أو تسعات، وطلع فجر الخميس قبل موعده كما قالت فرحانة أم يوسف وأيدتها جدتى .

وفى المدافن تولت فرحانة توزيع الفطائر والقرص والتمر والبرتقال على الاطفال الصغار والمقرئين ومن احترفوا جمع رحمة الأموات من كفرنا ومن خارج زمامه، رجعت كل السلال فارغة إلى الدار ماعدا لقمة مكسورة من قرصة فى أحد السلال ربما لتبعد عن أهل الدار ما يمكن أن تأتى به الأيام الدوارة من أحزان بعد كل هذه الأحزان، وقبل عصر نفس اليوم جاء إلى دارنا كل مشايخ الكفر من العميان والمفتحين من مقرئى الرواتب والفقهاء وحفظة القرآن الكريم، قسموا القرآن بينهم بأجزائه التى يقرؤها الآخرون وتتداخل أصواتهم ويصعب وسط الجلبة تمييز الغليظ من الرقيق أو المرتفع عن الخافت، هى الخاتمة كما كانوا يقولون، الذى يتم جزأه يسكت بينما يواصل الآخرون حتى أنهى الشيخ محمدين الضرير آخر آياته فطلبوا له أن يفتح الله عليه وان ينور بصيرته، وقبل أن يسيطر الصمت فى أركان المندرة الكبيرة جاءت الصوانى النحاسية وعليها المواعين المملوءة

بالفت والأرز ومن فوقها قطع اللحم المسلوق الذى تخاطفوه رغم كثرته عميان ومفتحين وبأسنانهم نهشوه قبل أن يجربوا الأرز أو الفت فواح الرائحة، تساند البعض منهم على الكفوف أو الكيعان متباعدين عن الصوانى ومسنودين على مساند الكنب ليشربوا الشاى الساخن الذى وصل إليهم برشفات لها صوت، بعدها دس أبى فى كفوفهم المفرودة فلوس الرحمة فدسها البعض فورا فى الجيوب أو السيالات بينما أبقاها البعض فى القبضات المضمومة بينما يتساندون داعين لأهل الدار بالفرج والستر وأن تكون هذه آخر الأحزان وهم فى طريقهم إلى مدخل الدار المؤدى إلى بابها الكبير، لكن الخاتمة التى كان من المنتظر أن تطرد الشياطين من الدار وأن تنزل على قلوب أهلها الصبر والسكينة انتهت نهاية غير محسوبة، ذلك أن أمى رأت وسط الخارجين من صحن الدار وجه الشيخ عباس الأعرج وهو يظلع فى خطواته متعجلا وكأنه يفر مما يمكن أن يواجهه إذ رأته هى، لكنها رأته بالفعل وسحبته من قفا جبتُه إلى الخلف فاختل توازنه وسقط بطوله مرميا على ظهره وعيناه تنظران إلى سقف الدار بينما يتساند على الأيدى التى تساعده ليقوم نصف قومة، كانت هى قد خلعت فردة مداسها اليمنى ورفعتها إلى أعلى فى مشروع

لضرب الرجل الذى لم يستقم عوده بعد أو يحسن استخدام عكازه، لكن أبى كان قد جاء إلى المكان ورفعها رفعا بينما تحرك مداسها فى اتجاه رأس الرجل فراحت تصرخ :

– نزلنى .. نزلنى . خلينى أقطع البرطوشه القديمه على دماغه، مين دخل الأعرج أبو ديل نجس دارى ؟ يدخلها فى يوم زى ده إزاى ؟ وأنا أقول قلبى مولع نار ليه ؟ أتاريه إبليس ومدفوس وسط الناس الغلابه دول .. نزلنى يا راجل قبل ما يهرب بعملته.

ولم يتركها أبى تنفذ رغبتها أو ينزلها إلا بعد أن خرج الشيخ عباس الأعرج من باب الدار وربما يكون قد خرج من الشارع ووصل داره أو دخلها وسك بابها عليه.

أيدت كل الحاضرات أمى فى فعلتها إلا فرحانة أم يوسف التى وجهت كلامها للستات دون أن تنظر ناحية أمى :

– حرام عليكم يا ناس... اللى معاها كلمه طيبه تقولها ... دا غلبان ومنكسر وعاجز كمان، أنتو كده بتقطعوا عيشه ظلم.

– بس الخلق كلها شاهده على نجاسته وقلة حياه.

– خلق مين يا أم الشحات ؟ انتو اللى بلدكم تولد البغله، أهو تلقيح جتت والسلام ..

– لأ بقى يا أم يوسف .. يوسف ابنك فين ؟ .. أهه، قــول لامك يا يوسف شفت إيه فى الترب ليلة العيد أنت والشحات ؟

حكى يوسف وحكى الشحات وحكيت أنا ما كنا قد رأيناه ثلاثتنا فى تلك الليلة المقمرة التى سرحنا فيها وسط الغيطان وتجاسرنا عناداً على الرجوع من سكة المدافن حتى لا يتهم أحدنا بأنه خاف من العفاريت التى تسكنها، سمعنا فى أول الأمر أصوات ونحنحات ثم رأيناه عند حوش مدفن النعناعية الجديد، كان هناك مقطع قماش حول نفسه والشيخ عباس بارك على ركبتيه وقد تعرت مؤخرته ومن بين فخذيه شفنا ساقين عاريتين لامرأة لا تتحرك، فى أول الأمر تهامسنا بأنه عفريت راكب عـفـريت لكن الولد يوسف قال أنه بنى آدم أو بنت آدم تباعدنا عن المكان واختبأنا فى زريبة بنت الدبوس ننتظر وقلوبنا توشك على التوقف من شدة الخوف، وعندما مر الشيخ عباس الأعرج وقد لف مقطع القماش تحت إبطه تأكدنا أنه هو، كان يتنحنح ويتمخط ويكح ويحادث نفسه بصوت :

– الستر من عندك يا رب، استرها يا كريم.

كتمنا السر فى قلوبنا حتى صباح العيد عندما أشاع الناس أن حوش مدفن النعاعية انفتح وأن سعيدة بنت الغباشى

النعناعى انسرق كفنها وفاتها اللص عريانة، قلت أنا لأمى ولابد أن الشحات قال لأمه لكن يوسف لم يبح بالسر إلا فى تلك الساعة وقد كنا فى المكان معا، لابد أنه لم يشع ما رآه تنفيذا لنصيحة أمه فرحانة أو تهديد أبيه حلاق الحمير بأن يقطع دابره إذا نطق، لكن سر عباس انكشف وصارت الناس تقول للناس أنه خباص وأنه يرتكب دائما الفاحشة مع الأموات من النساء والبنات ويسلب الأكفان، لكنه كان مجرد كلام قلناه فى ليلة عيد، وربما تهيأ لنا أنه كان عباس لأن العفاريت والجن تتشكل فى هيئة البنى آدمين.

كانت فرحانة أم يوسف هى الوحيدة التى لم تصدق الحكاية وجلست إلى جوار أمى تهدئها وتحلف لها بأغلظ الأيمان بأن المسألة كلام عيال وأن زوجها عندما كان يجمع مشايخ الكفر والفقهاء لم يكن قد سمع مثل هذا الكلام الفارغ والا ما كان اتفق مع عباس، وحفظة المصحف والمقرئين فى كفرنا وكل الناحية متواجدون وجاهزون ورهن الإشارة فى كل الأوقات.

لكن الليلة لم تفت على خير، كانت الدار قد صارت شبه خالية بعد أن تسحبت النسوة واحدة فى إثر واحدة وما تبقى غير جدتى وفرحانة وأم الشحات، أما الرجال فلم يكن هناك غير

أبو يوسف وزميل لأبى منقول جديد لمكتب الصحة وقد جاء ليؤدى واجب العزاء ثم سأل إن كان السير فى السكة الزراعية بعد المغرب خطر فجاوبه أبى بأنه من الممكن أن يقضى الليلة فى دارنا حتى يطلع النهار .

لابد أنه كان صوت زغرودة ذلك الذى سمعناه يخترق آذاننا من جهة أخر الشارع ناحية بوابة أولاد عوف، قامت فرحانة أم يوسف من جلستها بجوار أمى وقد نجحت فى تهدئتها من ناحية دخول عباس الأعرج دارنا ومشاركته الفقهاء قراءة الخاتمة الشريفة والتى لابد أنها بسبب وجوده لن تنفع ولا بد من إعادتها، لكن صوت الزغرودة كان بمثابة موضوع جديد أهم من موضوع الخاتمة وعباس ومسئولية أبو يوسف عن وجوده، خرجت من باب الدار تستطلع الأمر فما غابت بضع دقائق حتى سمعنا أصوات متداخلة، زغاريد ثم أصوات استغاثة وصراخ ورمح وفرحانة تعبر من باب الدار المفتوح وهى تستغيث لا أدرى بمن:

– الحقونى .. الحقونى .. ح يموتونى .. الحقونى يا ناس.

وعندما اختفت فرحانة داخل الدار رأينا زوجة عبد الصبور وزوجات أولاده الكبار، وعياله الصغار يقفون عند الباب ولا

يتجاسر أى منهم على عبور عتبتها وهم يسبون فرحانة ويهددونها بالهلاك إذا ظهرت لهم، طلعت جدتى وطلع أبى يستوضح الأمر فعرفنا أن فرحانة بطحت الشيخ عبد الصبور بقالب طوب أحمر وأن الرجل فى الدار غرقان فى دمه، أبدى أبى دهشته مثلما اندهشنا وسألناهم عن الأسباب فتبادلوا نظرات حائرة ولم يرد على السؤال أحد، لكن بعض الجيران ممن كانوا فى المنطقة يتسكعون فسروا لنا الأسباب وهم يطردون من كانوا يطاردون فرحانة ويهددونها منذ لحظات فانسحبوا جميعا بتراخ وكسل .

– الخلق دول زى ما يكونوا قلعوا برقع الحيا، لا بيراعوا جيره ولا قرابه، هو ده وقته يشرطوا شرط ويقروا فاتحه ؟

وعندما ظهرت فرحانة وقد اطمأنت عرفنا منها تفاصيل ما جرى عندما اكتشفت فرحانة أن عبد الصبور «الخنزير» إختار هذه الليلة بالذات ليكيدنا حيث قرأوا فاتحة عبد النصير الليلة على بنت جعفر الشوكى وهو نسب لا يشرف ولا يرفع رأسا، تباكت أمى وهى تتذكر كيف كان عبد النصير يلح فى طلب المرحومة زينب وكيف أن أبى رفض وأنها رفضت أن تعطيها لواحد مثله لا علام ولا تربية ولا أصل ولا قيمة، تباكت أمى

وفرحانة تهدئها وتمنيها بخلفة بنت غير البنت تتسمى بالاسم نفسه وتعيده على السنة أهل الدار، هل ارتاحت أمى للفكرة وتمنت حدوثها ؟ ربما تمناها أبى وتمنيناها لتكون لنا عوضا عن زينب، تلك التى انخطفت بلا مقدمات .

وقالت جدتى لأمى أنها لو كانت أخت شقيقة أم وأب ما كانت عرضت روحها للموت فى دار عبد الصبور وما كانت أخلصت لها أكثر من فرحانة، قالت ذلك وتمنت لها الستر وأن يرزق الله أبنها يوسف من حيث لا يعلم ولا يدرى فوافقتها أمى وقالت :

– آمين .

مجلة إبداع يونيو ١٩٩٨

أحمد الشيخ

- ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس
- دبلوم تمهيدى ماجستير فى تاريخ مصر الحديث ١٩٦٨
- جائزة الدولة التشجيعية ووسام الدولة للفنون من الطبقة الأولى عن مجموعة «النبش فى الدماغ» ١٩٨٥.
- عضو مؤسس وعضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب
- عضو نادى القصة
- عضو اتيليه القاهرة للفنانين والأدباء
- عضو بجمعية الأدباء
- سافر ضمن وفود الكتاب والأدباء لتمثيل مصر إلى كل من: الصين - السعودية - العراق - ليبيا

صدر للكاتب

مجموعات قصصية وروايات:

- دائرة الإنحناء - مجموعة قصص - ١٩٧٠ - هيئة الكتاب
- الناس فى كفر عسكر - رواية - ١٩٧٩ - هيئة الكتاب
- النبش فى الدماغ - مجموعة قصص - ١٩٨١ - دار المعارف

- مدينة الباب – مجموعة قصص – ١٩٨٣ – هيئة الكتاب
- كشف المستور – مجموعة قصص – ١٩٨٤ – دار المعارف
- الحنان الصيفى – مجموعة قصص – ١٩٨٧ – هيئة الكتاب
- حكاية شوق – رواية – ١٩٩١ – دار الهلال
- البحر الرمادى – مجموعة قصص – ١٩٩٣ – هيئة الكتاب
- حكايات المندهش – رواية – ١٩٩٦ – دار الهلال
- نصف الساعة السعيد – مجموعة قصص – ١٩٩٦ – قصور الثقافة
- المنام المراوغ – مجموعة قصص – ٢٠٠٠ – دار زويل
- النبش فى الدماغ – مجموعة قصص – ٢٠٠٢ – مكتبة الأسرة
- الأعمال الكاملة – المجلد الأول – ٢٠٠٠ – هيئة الكتاب
- ملاعيب الأكابر – مجموعة قصص – ٢٠٠١ – مركز الحضارة
- الحنان الصيفى – مجموعة قصص – ٢٠٠١ – مكتبة الأسرة
- الأعمال الكاملة – المجلد الثانى – ٢٠٠١ – هيئة الكتاب
- إبداعات التفرغ – المجلد الأول – ٢٠٠٢ – المجلس الأعلى
- رسام الأرانب – مجموعة قصص – ٢٠٠٢ – قصور الثقافة
- خطافة العيال – مجموعة قصص – ٢٠٠٢ – هيئة الكتاب
- الناس فى كفر عسكر – رواية – ٢٠٠٢ – مكتبة الأسرة
- إبداعات التفرغ – روايتان مجلد ٢ – ٢٠٠٣ – المجلس الأعلى

مجال الكتابة للطفل

قصص ومجموعات قصصية :

- عسكرى الشطرنج الأبيض - ١٩٩٠ - هيئة الكتاب
- نخلة حازم - ط ٢، ١٩٩٦ - ط٣، ١٩٩٨ - دار المعارف
- غياب الكلب الأبيض - ١٩٩٣ - هيئة الكتاب
- القط الكسلان - ط١، ١٩٩٤ - ط٢، ١٩٩٧ - دار المعارف
- أم الخير - ط١، ١٩٩٤ - ط٢، ١٩٩٧ - دار المعارف
- الجاحظ - ط١، ١٩٩٤ - ط٢، ١٩٩٧ - دار المعارف
- الخطوة الأولى - ١٩٩٥ - هيئة الكتاب
- العصفور الأخضر الترجمان - ١٩٩٦ - هيئة قصور الثقافة

سلسلة «الأشياء فى عيون الصغار»

عن مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٠

فنجان الشاى الصينى	البيت الصغير
القلم النشيط	عسكرى الشطرنج
المكنسة القديمة	كتلة الخشب
الأقلام الملونة	مجموعة الكراسى
فارس من الأبنوس	الحطاب

الساعة الحمقاء	نطاط الساعة المستعجل
المقص المخدوع	دبوس إبرة
الكرة الحمقاء	الفارس والدمية
قالب الثلج البردان	التمرة والنواة

تحت الطبع

رباعية كفر عسكر المجلد الثانى – كتاب التفرغ

سيرة العمدة الشلبى – رواية

المجلد الثالث من الأعمال الكاملة – هيئة الكتاب

أرضنا وأرض صالح – رواية

المحتويـــــات

صدر من هذه السلسلة

١ - آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨

٢ - يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى

٣ - مارواه البحراوى - عبد الرحمن شلش

٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبد الرازق

٥ - زوجتى لا تريد أن تتزوجنى - فتحى سلامة

٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى

٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم

٨ - حدائق السماء - مجمد سليمان

٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة

١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف

١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ

١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد

١٣ - بحر الزين - حسن نور.

١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد

١٥ – إحراج – نادية كيلانى

١٦ – البنات – هدى جاد

١٧ – عاد الأسد .. أسداً نبيلا – عبد المنعم السلاب

١٨ – عراف السيدة الأولى – محمد القصبى

١٩ – حكايات عن العربيد – صلاح عبد السيد

٢٠ – السلمانية – صلاح معاطى

٢١ – الفائزون أول القرن الحادى والعشرين – الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة

٢٢ – صبحى الجيار والمحنة المضيئة – مصطفى عبد الوهاب

٢٣ – الرغبة الوحيدة – صوفى عبد الله

٢٤ – الغزال فى المصيدة – محمود البدوى

٢٥ – خراط البنات – صفوت عبد المجيد

٢٦ – القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع – حسين عيد

٢٧ – حوار مع جنية – عصام الصاوى

٢٨ – ليلة موت – عبد الحميد الفداوى

٢٩ – حبيب حبيبى – درويش الزفتاوى

٣٠ – لقاء غير متوقع – محمد صفوت

٣١ - التوأم وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة

٣٢ - أكثر من عمر - عبد الفتاح مرسى

٣٣ - من حياة الحياة - رستم كيلانى

٣٤ - فرحة الأجراس - عبد العال الحمامصى

٣٥ - أنا .. ونورا .. وماعت - رفقى بدوى

٣٦ - الليلة الثانية بعد الألف - مختارات من القصة النسائية فى مصر - إعداد وتقديم يوسف الشارونى

٣٧ - ثلاثية آدم وحواء - عماد الدين عيسى

٣٨ - الأحلام تتمشى فى الذاكرة - محمد الفارس

٣٩ - بين الحكي والنقد - نبيل عبد الحميد

٤٠ - مواسم الشروق - أحمد الشيخ

الإصدار القادم

- السقف والناب الأزرق - فؤاد قنديل

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)